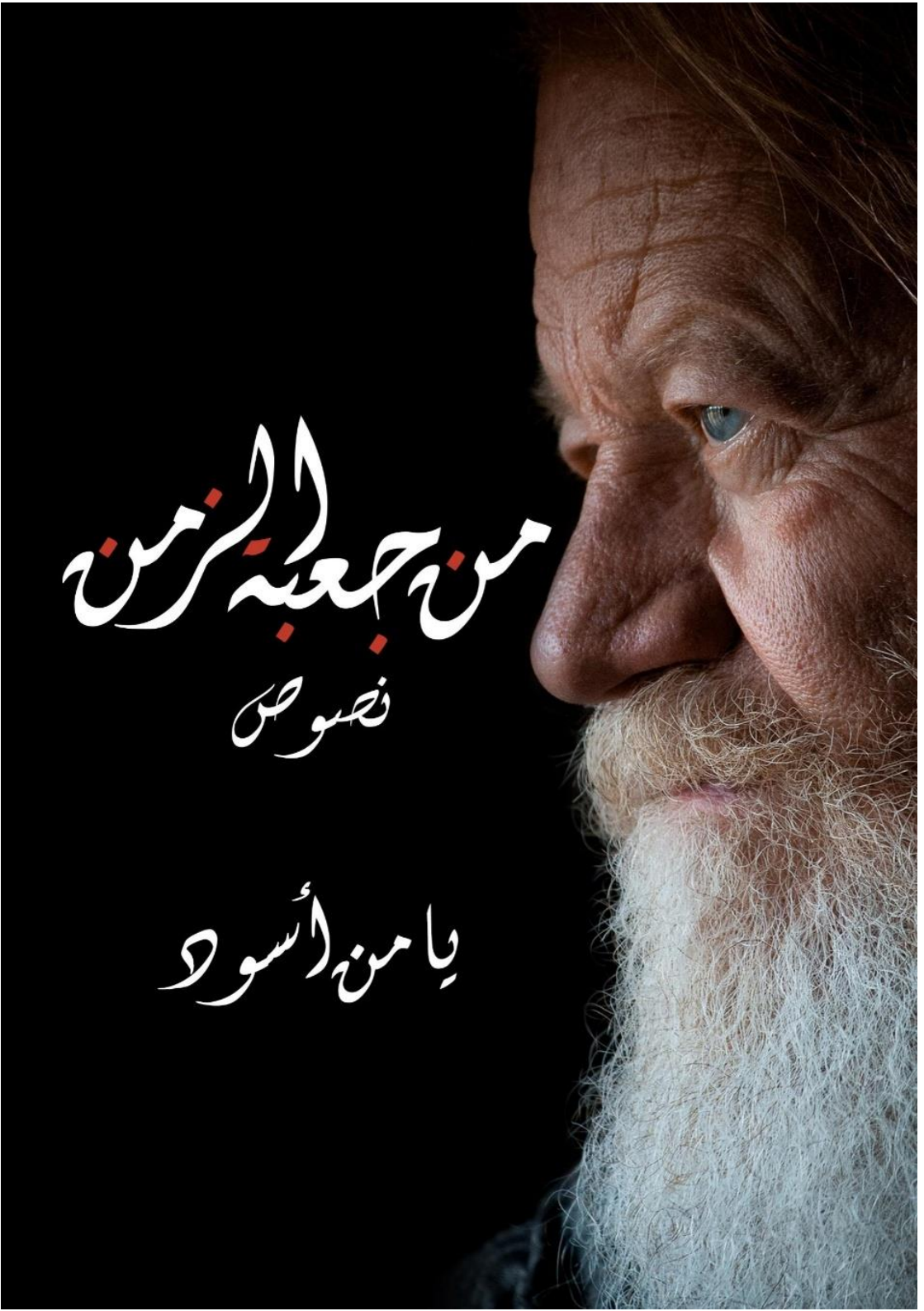
من جعبة الزمن
نصوص
يا من أسود

من جُعبة الزّمن

نصوص

يامن أسود

2021

من جُعبة الزّمن

الإهداء

إلى نُصوصي الأدبيّة المشرّدة في أوراقِ دفاتِري، إلى النّصوص الّتي كَتبتُها وظلّت حبيسةً بينَ جُدرانِ هاتفي، أجمعُكِ اليوم بين دفّتي هذا الكتاب.

وإليك يامن لو وضعتُ شعرةً واحدةً من شعرهِ الأشيب على ظهري لمشيتُ كالبطريقِ من الثّقل، وإلى من كان حِبرُ أقلامي دَمها، إلى البُوصلة الّتي أوصَلتني بَرّ الأمان، وإلى كلّ من أشعلَ لي شُموعًا وأضواءً في طريقي هذا.

تساؤلات

لماذا انطفأنا؟

ما الّذي أذاقتنا إيّاهُ الأيام حتّى غدونا جُثثًا مُتحرّكة؟

ما هي الأثقالُ التي جثمت فوق صدورنا حتّى خرقتها، وخرقت قلوبنا معها؟

إلى أين نمضي؟

إلى أيّ حالٍ سنصير؟

من سيُرتّب فوضى السّنين داخلنا؟

من سيُلملم بقايا الأحلام المُتكسّرة من داخلنا؟

من سيكونُ لنا عُكّازًا إذا ما هرمنا وهرمت أرواحنا؟

هل سنجد محطّتنا الّتي نبتغيها؟

أم أنّنا سنقضي العُمر على تلك السُّبل المُتعِبة؟

هل سنرجع يومًا إلى حيّنا كما قال الشاعر هارون رشيد لنا؟

أصحيحٌ أنّهُ التقى العندليبَ وأخبرهُ أنّنا سنعود؟

هل سنُقَبِّل تُراب أوطاننا مُجدّدًا؟

هل سترفرف أعلامُ الحريّة في سمائها؟

هل سنقضي ما تبقى من أعمارنا زحفًا وراء لحظاتٍ مشلولة؟

هل سنحظى بربيعِ العمر ولو لمرّة واحدة؟

هل سنعيد رفعَ نواصي الأحلام التي اندثرت؟

هل من الضّروري أن تتحطّمَ الأحلامُ فوق قلوبنا في كل مرّة؟

هل سنتحدّث عن نكباتنا بفخرٍ في نهايةِ الأمر؟

أيَكونُ النّصر حليفنا هذه المرّة؟

أم أنّ أعمارنا جُبلت على الهزائم؟

هل من أضواء في آخر النفق؟

هل من شموع في طريقنا؟

أم أنّنا سنُمضي حياتنا في الظّلام؟

هل من إشراقٍ بعد هذا الغروب؟

هل من نضارةٍ بعد هذا الذّبول؟

هل سيلتقي كل إنسانٍ بما انتظره؟

هل سيكون لنا أثرٌ من بعد الرّحيل؟

هل سنجدُ باب هذه المتاهة؟

ما ضرّ لو عانق النُّور أيامي؟

هل من الضّروري أن يتكرّر هذا السيناريو القاسي في كل مرّة؟

لماذا غادرونا؟

لماذا لم نغادرهم نحن قبل أن يغادرونا؟

من سحب بساط الطّمأنينة من تحتِ أقدامنا؟

من فعلَ هذا بأحلامنا الضّخمة؟

من أبدلَ الآمال بالآلام؟

من حطّم الأحلام؟

من هشّمها؟

من كسّرها؟

والسّؤال الأخير هنا، لماذا نبحث دائمًا عن إجابات؟

أليست الأسئلة بحدِّ ذاتِها مُوجعة؟

فلماذا نجيب عليها ونزيدُ الطّينَ بلّةً؟

هذه أسئلة بلا أجوبة، أخافُ أن أجيب عليها، فينهار النّصُّ من البكاء، وأخافُ حقًّا أن ينهارَ فوق قلبي.

أعمارٌ مشلولة

عندما تحلم، تذكّر أنّ هذهِ الحياة تُشوّهُ الأحلام بجدارة، فاحلم وأنت تُهرول، إيّاك أن تركُض في الأحلام، ستصطدم، ثمّ ستتكسّر وستنهارُ أرضًا صدّقني، دع مساحةً لخيبتك، أبعد عنك الأمل السّاذج، أبعد عنك الطُّموحَ العالي، اطمح على القدرِ الذي يحتمِلُهُ واقعك، خطّط ليومك وليوم غد، لا تُتعب نفسك في التّخطيط لسنواتٍ قادمة، في ليلةٍ ما، خيبةٌ ما ستُصيبُك وتُنهي كلَّ شيءٍ خطّطتَهُ، خطّط لأشياءَ بدائية تُسعدك، لا لأشياء عملاقة تُحطّمك، خطّط لكوبِ شايٍ تحت شجرةِ ليمون، خطّط لقراءةِ ديوانٍ شعريّ، أو قراءةِ روايةٍ لطيفة، خطّط لفنجانِ قهوةٍ مع الصّباح، مع الصّباح والطّبيعة، وإيّاك أن تشربَهُ مع بشريّ، الحياة ليست ورديّة كما كنت تراها في العاشرةِ من عمرك، ستُبصر الطّريق بوضوح، فيُعجِزُك المسير، سترى أهوال العالم، ثمّ ستقِفُ مُرتعِبًا تُفكِّر بالعودة إلى الوراء، ثمّ ستسمع التّوبيخ من كلّ النّاس الذي توقّعتهم أن

يُوبّخوك والّذين لم تتوقّعهم، فتفكّر بالتّقدم لتنالَ من العالم بدلَ أن ينالَ منك، ونهايةً لن تعود ولن تتقدّم، ستقفُ في وسطِ الأشياءِ كلّها، ستغزو ذهنكَ العشرينيَّ المُشوّش أحاديثُ كثيرة تمنعُكَ من التّحرك، وسيكون البرود محطّتكَ الأخيرة، إنّ أعمارنا مشلولة، لا تسيرُ بنا ولا نسيرُ بها، هذه الحياة تُدرّبنا بشكلٍ متكرّر على تحمّل حزن الفِراق، تسلُبنا الحبيب والرّفيق، تسلُبنا الطّريق والأنيس، تكرّر سيناريوهات الفِراق وطُقوس الحُزن علينا في كلّ مرّة، ويومًا بعد يوم تزدادُ البلادةُ فينا، وتزدادُ لامبالاتنا، حتّى يأتي يوم يضرِبُ فيهِ الصّقيعُ أرواحنا ونغدو جثّة لا يعنيها العالمُ بأسره، ولا يُهمُّها حُلمٌ أو حبيبٌ أو رفيق، شتاؤك القاسي لا يسقيكَ سوى الخيبات في كلّ عام، فكيف سيخضرُّ قلبك، فإيّاك أن تنتظر الرّبيع، كي لا تُصفع وتخيب عندما لا يأتي، أعدُكَ أنّه لن يأتي يا عزيزي، الرّبيع لا يُصيب القُلوب، خريفُ القلوبِ سرمديّ، وحدَها الأشجارُ من يُصيبُها ربيعُ ما بعد الخريف، وفي الرّبيع تذكّر أن تنظُر

نظرتين، نظرَةً إلى الأشجار ونظرَةٍ إلى قلبك، حينها ستعرِفُ حقًّا أنّكَ تملِكُ قلبًا أجدَب، بل وأحدَب.

بيانٌ وإذعان

في جولةٍ نُجريها داخلَ ذواتِنا، وبنظرةٍ بعيدةِ المدى في أجوافِ قلوبنا، وبعد حوارٍ طويلٍ مع أنفسنا، بتنا جميعًا نعرفُ أيُّ الأشياءِ زرعنا وبماذا تلطّخت أيدينا، جميعُنا رأى تلوّثًا طافحًا أصابَ قلوبنا في الآونةِ الأخيرة، وفي إقرارٍ ساطِع عن ما ارتكبته أيدينا، نَقولُ للعالم السّخيف بصوتٍ عالٍ، زرعنا قلوبًا سوداء فاسودّت وجوهنا والنّواصي، حصدنا الأرواح تحت مُسمّى سورة الغضب، دفنّا خلافات وغضضنا الطّرف عن الشّجارات فنبتت بيننا مآسٍ أكبر لتُطاردنا، مآسٍ لا يُحلُّها فِنجانُ قَهوة، أخطنا الجروح دونَ أن تُنظّف، ففاجأتنا التهاباتٌ عِملاقة لِتُلاحقنا، التهاباتٌ لا يُشفيها إلا البتر، طَحنّا أفئدةً غَضّةً بخشونتنا، دَككنا الفزعَ في قلوبِ من حولنا بوجهِ صبّارٍ كنّا قد لبسناه، أشرعنا مناجلنا وحصدنا ما تبقّى من الأرواحِ المنكوبة، عَقَدنا حواجبنا أمام من بسطوا ابتساماتهم أمامَ قلوبنا، أصابتنا غِلظَةُ القلب، فانفضّ الجمعُ من حولنا.

لا تقطعوا الأشجار، ولا تصنعوا الطّاولات الخشبيّة، ما عاد باستطاعةِ طاولةٍ أن تحتوي مشاكلنا من فرطِ الكِبَر الّذي ملأنا، من فرطِ التّجبّر، ما عاد يُرضينا كوبُ شايٍ لإنهاءِ خِصام، ما عادت فناجينُ القهوة مقبرةً للخلافات، ما عُدنا بدائيّين يُسعدنا فنجانُ قهوةٍ برغوةٍ كثيفة، أو كوبُ شايٍ بالنّعناع، أو أن نَعُدَّ أوراق زهرةٍ مثلًا، صارت سعادتنا مقرونةً بما نملكهُ من أموالٍ وشركات، صارت مقرونةً برحلةٍ إلى المالديف أو سويسرا الخضراء، أصابنا الطّمع والجشع، الرّضا انعدم والنّفسيات فسدت، امتدّ الظُّلم على مساحاتٍ واسعة، فغفت أعيُنُ الخونة والطُّغاة، وبَقيتْ مُتنبّهةً أعينُ المظلومين الأعزّاء، صارت نواصي الأحلام فخًّا، من تحتهِ أعيُنُ الشّامتين، شغلتنا توافهُ الأمور وسفاسفُ الغايات عن النّظر إلى الآخرة، أكثرنا الكلام الفارغ، وتركنا العمل به، كسرنا العشم فسال الودُّ كما يسيلُ الدّم، عِثنا فسادًا في كلِّ مكانٍ وطأتهُ أقدامنا، أكلتنا العُنصريّة ونامت ضمائرنا فما استفاقت ولا استفقنا.

أريدُ أن أنضج

أريدُ أن أعيش الحياة بعقلِ رجلٍ سبعينيّ، عرف الحياة، وحفظها عن ظهرِ قلب، يملكُ من العلم والحكمة، ما يجعله لا يُخطئ ولا يتعثّر، أريدُ أن أملك قلبًا كقلوبِ الأطفال، أريد فؤادًا كأفئدةِ الطيور، أريد قلبًا لم تُدنّسهُ الحياة، أريد قلبًا بدائيًّا يُسعده حبلُ زينة، أريد أن أنضج، فلا أقع في مِصيَدةِ الحُبِّ مرّةً أخرى، أريد أن أنضج، فأحطّم الأحلام في بدايتها، قبل أن تنهارَ فوق قلبي في المُنتصف، وقبلَ أن يمضي العُمرُ بي، أريد أن أنضج، وأريد قلبًا جديدًا حينما أنضج، سأحافظ على استقامته، لن أجعله يتحدّب، أو تأكُلهُ الخيبات فيتقعّر، أريد أن أنضج، لتمتلِئ روحي إيمانًا وتُقَى، فلا أعصي الله مجددًا، أريدُ أن أنضج، لأتفادى صدمات هذه السّنوات الملأى بالضّنك والحرمان، أريد أن أنضج كي لا أقع مرّةً أخرى دون أن أجدَ يدًا واحدةً تنتشلُني، دون أن يرثي أحدٌ لحالي، أريدُ أن أكون شجاعًا أكثر، لا أريد شخصي القديم

الضّعيف، أريد شخصًا ناضجًا، أريد شخصًا أقوى، أريد أن يكون بداخلي رجلٌ عجوزٌ يسقيني الحكمة، فتبتل عروقي فرحًا، ويذهبَ ظمأُ روحي، أريد أن أنضج، كي أمشي في الحياةِ بسلاسة، كشخصٍ يمشي في طريقٍ، كان قد مشى به آلاف المرّات قبل ذلك، فيمشي دون أن يُباغته مطبٌّ أو حُفرة، فيمشي وقد اعتادَ مُنغّصات الطّريق، فما عادت تُؤرقه، أريد أن ينتهي هذا البُؤس والشّقاء، أريد مخرجًا من هذا الضّياع القاسي، إلى النُّضجِ المريح، الطُّرق ذات المدخل الواحد غدت متاهاتٍ لا تنتهي، والأحلامُ تناثرت، فتلاشت قِوانا معها، وضاعَت العزائم، نريدُ أن نجِدنا، نريدُ أن ننضج.

عجزٌ أبدي

أرخت الأيّامُ قوّة أكتافنا، دُفِنَت همّتنا حيّة، أصابنا الدّهر بالعجز، مُذ صرنا نسندُ رؤوسنا المثقلة على قلوب أصدقائنا المحدّبة، مُذ صرنا نستندُ على سلالم الصّعود صاعدين بدلَ أن نصعدها بهمّتنا تلك دونما مُتّكَأ.

مُذ صارت أعيننا تنظرُ إلى ما وراءها بدلَ أن تُبصِرَ الطّريقَ أمامها دخلنا في متاهاتِ الواقع، مُذ صرنا نحدّقُ بأبصارنا إلى عثراتنا أصابتنا فوبيا الأخطاء، صارَ الخطأ جريمةً يُعاقِبُ عليها القانون.

ينطفِئُ المرءُ مِنّا فتراهُ يسيرُ مُستقيمًا، لا فرقَ بين خطوةٍ وأخرى من خُطاه، ينطفِئُ فيسيرُ بأكتافٍ مصلوبة، وقامةً لا تهزُّها أعاصيرٌ كأشجارِ السّنديان، ينطفِئُ فتجحَظُ عيناهُ في الطّريق كما لو أنّ الطّريق عَدُوّ، وعلى أكتافهِ المصلوبة عُلِّقَ العالمُ بأكمله.

انطفأنا كشمعة، ماضرّنا ذاكَ شيئًا، إنّما ضرّ من اتّخذوا من شعلتنا ضياءً لهم في الظّلمات، وإلهامًا لقلوبهم في مسيرها، تاهت بهم الطّرق، لم يكن ذنبهم، هم ليسوا جناة، الجاني الوحيد من أطفَأ الشّموع.

الشّموع باتت مطفأة، لا شرارة ولا نيران تُشعلها، ما عادَ في هذا القلب مُتّسعٌ لشموعٍ ونيرانٍ جديدة، بعضُ الانطفاءاتِ أبديّة، لا شغفَ جديدَ بعدها ولا بدايات، ما عادَت البِداياتُ مَحَلًّا للشّغَف، وَما عادَ ضَوءُ النَّهارِ يُغري الأفئِدة، ما عادَت الطُّرُق تَبدو لنا مُستقيمة، لِكُلِّ تَفَرُّعٍ تَفَرُّعات، وَلِكُلِّ استِقامةٍ وُحولٌ وَحُفر، أخشى أنْ يأتي يَومٌ لا نَكادُ نُبصِرُ فيهِ الطُّرُق، أخشى ما أخشاه أن تَفقِدَ القُلوبُ النَّظَر.

يُوسُف الصَّغير

في حديقةٍ ما، وعلى مقعدٍ خشبيٍّ كنت أجلس، وكنت أقرأ جهرًا سورة يوسف، وطفلٌ على مسافةٍ قريبةٍ منّي يلعب على درّاجتهِ القِرمزيّة، كنت أحدّق بالنّجوم، وأتلو بخشوعٍ تام، وصلتُ إلى {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا} فشهقَ الطّفل ثمّ بكى بحُرقة، حسبته قد خشع بالآياتِ معي، لم أكترث لبكائه، فقد كان والدهُ قريبًا منه، أكملت التّلاوة وكأنّ شيئًا لم يكن، حتّى وصلتُ إلى {قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ} فمَسَحَ الطّفلُ دُموعهُ وقفزَ مُنتشيًا وكأنّهُ يُعلن انتصارًا ما، حينها علمتُ أنّ اسمهُ يُوسُف!

فما أتممتُ قراءة الآية، لأنّي عرفتُ أنّه سيجهَشُ بالبُكاء حينما يسمع {وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ}، ما أشدّ براءة الأطفال، وما أنقاها من براءة، ويبقى السّؤال هنا، أيُّ قلوبٍ يمتلكون؟!

يا ليت قلوبنا كقلبِ يُوسُف، يا ليت قلوبنا بدائيّة.

ما أبشع هرمَ القلوب، وما أقبَحَ دَنَسها.

كان شعوري لا يُوصف، إنّها أعظم صدفة صادفتني في حياتي، شعرت وكأنّها معجزة، فاض بي سُرورٌ عظيم، أريد حقًّا لهذه الصّدف اللّطيفة أن تتكاثر.

فاضت سعادتي أكثر حينما اقتربت من يوسف، مسحت على رأسه، ورويتُ له قصة يُوسُف عليه السّلام، صار يبكي بلوعة، وعبثًا حاولت تهديأه، لكنّه لم يسكن.

حين انتهيتُ من سرد القصّة له، قال لي ببراءة "أريد أن أكون مثل يوسف هذا"، مُجدّدًا، ما أشدّ براءة الأطفال، وما أنقاها من براءة.

شيئان انتشلاني من حُزني في تلك الحديقة، سُورةُ يوسف، وبهجةُ يوسف الصّغير حينما عَلِم _على حسب ظنّه_ أنّنا لن نقتُله.

شرخٌ سيرافقك طيلة العمر

هل تعي أنّ هذا التّعب فُرض عليك إلى الأبد؟

هل تعي أنّ هناك أشياء ما عاد بإمكان أحدٍ إصلاحها؟

هل تعي بأنّنا ضعنا؟

هل تعي ما معنى "ضعنا"؟

هل تعي أنّ إصلاح هذا الشرخ يحتاج عودة أشخاص قد رحلوا؟

هل تعي أنّهم رحلوا بلا عودة؟

هل تعي أنّك تقف مفتّتًا لوحدك؟

أيُّ حسرةٍ ستصيبك؟

كيف ستستطيع تقبّل فكرة أنّك ستُمضي عمرك تجرّ الأيّام خلفك؟

هناك قسوةٌ سترافقك ما حييت، قسوةٌ ستأكلك كلّ يوم، ماذا سيتبقّى منك بعد مدّةٍ ليست بطويلة وهذا الحُزن ينهشُ الكثير منك في كلِّ يوم؟

عيناكَ تقلّصت من فرط الحُزن، دماغك تآكل، معدتك نهشت بعضها بعضًا، وهن عظمك، واشتعل رأسك شيبًا، كيف سيكون حالك بعد سنين قليلة يا مسكين؟

ستفكّر بالهروب، صدّقني ستفكّر به، هذا حزنٌ لا يُطاق، هذا تعبٌ لا يُحتمل، ستبتعد، ستهجر هذه القيعان، ستفرُّ راكضًا من هذه المشقّة.

في السّنة الماضية، كتبتَ في بدايةِ الرّبيع:

"أزهرت حقول بؤسٍ كاملة، ولم يُزهر قلبه بعد، ربّما شتاؤه القاسي لم يسقهِ سوى الخيبات."

وفي هذا الرّبيع أراكَ تكتب:

ما بالُ قلوبنا أصابها القحط في وسط الربيع!

ما بالُ خريفنا هذا قد كان ربيع!

ومن ثمّ عند النّضارة تساقطنا كالأوراقِ في الخريف!

الرّبيع الماضي كان قاسي، مرَّ ذاك الرّبيع دون أن نزهر، هذا الرّبيع كان أقسى، لأنّه أسقط أزهارنا، وسلب منّا نضارتنا، بدلَ أن يزيدها ملاحة.

في مُنتصفِ مقبرة

أبدأ هذا النّصّ اليوم مع يقيني الكبير بأنّ نقطةً لن توقفني عن سرد أحزاني، أبدأ في سرد حزني هنا دونما توقّف، دونما فواصل تُباغتني في المنتصف.

_ولكنّ الفواصل ضرورة لغوية لا تعي بأنّ حزنًا يُكتب هُنا

_حسنًا، لن أخلّ بقواعد اللّغة، سأضع الفواصل كمحطّات استراحة أو كفسحة لتنهيدة لعابرٍ قد يقرأ النّصّ فيُتعبُ الحزن كاهله ولسانه، أمّا أنا فإنّ الفواصل تُؤرقني وسط هذا الزّخم من الأسى، فإن باغتتني الفواصل سأقفز من فوق أسوارها.

هذا النّصّ طويل للغاية، لأنّ فقرة أو عبارة لن تفي بالغرض، لأنّ الحزن ثقيلٌ على قلبي، ثقيلٌ على نصٍّ أدبيٍّ بأسطر معدودة، مأساتي أكبر من أن يسعها اقتباس، أكتب حزني نصًّا، أكتب هذا النّصّ لأفرغ ما تجمّع من حُممٍ في رأسي، أكتب لأستعيد الطّمأنينة في قلبي الّتي غزا

الذّعر مكانها، لا شيء يصف شعوري وأنا أقف وحيدًا في منتصف هذه المقبرة، ليس الذّعر الّذي أصابني من وقوفي وحيدًا في هذا المنتصف، ما كانت يومًا الوحدة تخلق الذّعر، الوحدة ملاذٌ آمن، إنّما الذّعر الّذي خُلق في قلبي كان نتاج جثّة طفلتي التي بين يداي، تلك الجثّة الّتي خرقت وحدتي في هذه المقبرة، الذّعر الّذي صفعني كان نتاج دماء طفلتي على قميصي الأحمر المزركش، لم أتخيّل يومًا أن يُصبح معي مثل هذا الموقف، لم يكن أبدًا بالحسبان أن أقفَ يومًا في منتصف مقبرة وبين يديَّ جثّة طفلتي، لقد خطفتها رصاصةٌ من رصاصات الاحتلال الغاشم بينما كنّا في مكانٍ قريب من أراضي الاحتلال، كانت تلهو تحت شجرة الزّيتون، كنت أجلس بعيدًا عنها، أراقبها وهي تعدُّ أوراق الزّهرة وتضحك، تُشير إلى الفراشات بكلتا يديها وتخجل، استمرّينا على تلك الحالة لفترة تزيدُ عن النّصف ساعة، كنت أراقبها بنشوة، كانت تغزوني الدّهشة، ثمّ انشغلت قليلًا، فتركتُ النّظر إليها لدقائق معدودة، أنهيتُ ما أشغلني عنها، وعدتُ لأكمل بهجتي بالنّظر إليها، ويا ليتني ما عُدت!

كانت ساكنةً، راكدةً كبحيرةِ مياهٍ عذبةٍ صافية، كانت الدّماء تملؤها وتملأ الزّهرة، كانت الفراشاتُ تحوم حولها وكأنّها شجرةٌ مخضرّة، اقتربت منها، لم أستطع أن أقفَ كثيرًا، حتّى لا تخطفني رصاصات الاحتلال أيضًا، رغم أنّي في تلك اللحظة كنت أتمنّى ذلك حقًّا، كم تمنّيت أن نغادر هذه الأرض معًا، ركبت سيّارتي، واتّجهتُ مع طفلتي إلى هذه البقعة، هنا يا طفلتي حيث دفنتُ والدتكِ منذ ثلاثِ سنوات، هنا حيث بكيتُ بكثرة، هنا حيث احترقت روحي، لكنْ، هذه الحياة يا حُلوة، يبدو أنّ نصيبي من البكاء في هذه القطعة لم ينتهِ بعد، كانت زيارتي هذه للمقبرة استعدادًا لزيارتها حين دفنك، كنت أحتاج طاقةً كبيرة لأقوى على لحدِكِ، فقمت بترويضِ نفسي بهذه الزّيارة الّتي ملأتني بحزنٍ طاحن، قرّرت أن أصلّي دونما قبلةٍ أتّجهُ نحوها، لأنّني شعرت حينها بأنّ الله يُحاوطني ويحميني من كلّ مكان، قرّرت أن أصلّي دونما وضوء، حزني الكارثيّ كان قد طهّرني حينها، قرّرت أن أصلّي دونما توقف، صلّيت للهِ كثيرًا، أفضتُ بالدّمع على مكان سُجودي، بكيت بين

يديّ الله كثيرًا، ثمّ تركت المقبرة متّجهًا إلى المدينة، لنقومَ بمراسم الغسل والدّفن، قلتُ بحُرقة {يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا}.

بعد مشقّةٍ كبيرة، أتممنا مراسمَ الدّفن، أنا دفنتُ جَسدَ طفلتي، وطفلتي دفنت قلبَ والدها بموتها هذا، ومن هنا أستطيع أن أسمّي هذه الدّنيا بدار الفراق، ومن هنا أقول، في النّهاية يبقى الأمرُ كلّه لله، ولا مفرّ من أمره إذا وقع {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا}.

تراني اليوم هادئًا مستكينًا كساعةِ حائط، والقلبُ داخلَ الصّدر مثقوبًا وأحدَب، يمرّ بي أهلُ الحي، ينظرون إليّ بأعيُنِ الشّفقة، ومن ثمّ يسألونني متعجّبين، كيف تُواجه هذا الحزن؟

كيف تجرّ هذه الأيّام خلفك؟

فأبكي، وأقول {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}

وأردف قائلًا: هكذا تكون مواساة الخالق لنا، هادئة، واضحة، وعظيمة، هذا هو القرآن الذي نسيناه، فيهِ شفاءٌ لكلِّ علّة، فيه مواساة لكلِّ منكوب، وفيه طمأنينةٌ جبّارة للمُرتَجِفةِ قلوبهم.

نعيبُ زماننا والعيبُ فينا

خرابٌ، وعتمةٌ في المُنتصف، وعُسرٌ وكُرَب، وتوقّفٌ لعجلةِ الحياة، نشكو القلّة والعُسرة، نشكو وخز الشّوكِ لنا من كلّ شيء، ونقول: "لماذا؟"، ونصرخ: "ماذا زرعنا حتّى نحصد هذا الخراب كلّه؟"

ناهيكَ عن أنّنا زرعنا الكثيرَ من السّواد والألغام، وتلطّخت أيدينا بجرائم كُبرى، وزرعنا الكثير من الدّنس، وذكرتُ ذلكَ في نص "بيانٌ وإذعان"، ناهيكَ عن كلِّ ذلك، نهايةً نحنُ حصدنا ما زرعناه، المشكلة أنّنا جئنا نشكو سوءَ ما حصدنا، ونحنُ نعلمُ أنّنا لم نزرع سوى الدّنس، جئنا نشكو عُسرًا أصابنا، وسفاهةً ضربت أفكارنا، وبلادةً أصابت أيّامنا، جئنا نشكو الكثيرَ منَ الكُرَب، وبدأنا نعيبُ زماننا، ولكنْ، وكما يقول الإمامُ الشافعيّ:

"نَعيبُ زَمانَنا وَالعَيبُ فينا

وَما لِزَمانِنا عَيبٌ سِوانا"

نحنُ عيبُ الزّمان، نحنُ عِبْءٌ على الزّمان، خالفنا أمور الله، ثمّ جلسنا نشكو لبعضنا ما وقع بنا، ثمّ جلسنا نشكو ثقلَ الزّمان على قلوبنا، حُرمنا كمالَ العقل، صرنا سُفهاء بجدارة، لأنّنا ابتعدنا كلّ البعد عن التّقوى، سمعنا نداءَ الله {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ}، ولكنّنا حينما سمعناه كنّا قد وضعنا أصابعنا في آذانِ قُلوبنا، فسَمِعَت آذاننا، وغفلت قلوبنا عن التّطبيق.

إذًا، كيف سنرزق العقل والحكمة والعلم دون تقوى؟

كيف ستُفتحُ لنا فتوح الفهم والمعرفة ولم نُخلص ولم نتّبع؟

كيف سنعرف الحقَّ من الباطل ولم نفعل أوامر الله ونترك ما نهانا عنه؟

ونصُّ الآية القرآنية واضح، يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا}

هناكَ أسلوب شرط واضح، لكنّنا ما طبّقناه، فما كانَ لنا جوابُه.

سمعنا نداء الله {وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} لكنّنا ما تركنا شيئًا يُهلكنا إلّا ووقعنا به، يُريد اللهُ بنا الرّحمة، لا يُريد أن يعذّبنا، فيأمُرنا أن نبتعدَ عن ما يُهلك أنفُسنا، الآن تجد مدخّنًا يشكو قلّةَ الصحّةِ والمال، أوَلَستَ من عاشَرَ سارقَ الصحّة والمال؟

أوَلَستَ من شربَ ذلك السُّمَّ الزُّعاف؟

وترى آخر لا ينفكُّ عن المعاصي، ولا يخافُ أن يمسّهُ عذابٌ من الرّحمن في الدّنيا قبل الآخرة.

أحدهم يشتكي قلّة الرّاحة، وهو لا يعرفُ للقرآنِ سبيلًا، كيف لك أن ترتاح وكلامُ اللهِ لا يَملأ قلبكَ يوميًّا؟!

لا علاقة للزّمان بالّذي فينا، نحن صنعنا هذا التّعب، نحن هجرنا سُبلَ الرّاحة الّتي دلّنا عليها الله، واخترنا سُبل الشّقاء، هجرنا الطُّرق الواضحة السّليمة، واخترنا الطُّرق المنهكة المُعقّدة.

سمعنا نداءات الله الواضحة {فَلَا تَظْلِمُوا} {وَلَا تَعْتَدُوا}، ولكنّنا عبثًا ملأنا الأرضَ ظلمًا وعدوانًا، فانخسفت بنا روابطنا، تفكّكنا، تفتّتنا، وما عادت تَسَعُنا محاكمنا.

سمعنا نداءَ الله {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا} ولكنّنا لم نعرف يومًا طريقًا للعفو، ظننّا العفوَ ضعفًا، ويا ليتنا لم نظن، يا ليتنا صفحنا وتصافحنا بقلوبنا قبلَ أيادينا، ولكنْ، أصابتنا لعنةُ التّكبّر، فصعّرنا خدودنا للنّاس، وبدأنا نتعثّرُ في متاهاتِ الواقع، فَهَوينا على وجوهنا مُتحسّرين.

ويبقى السّؤال دائمًا، هل سرنا في الطّريق الصّحيح حتّى نطلبَ من الحياةِ أن تستقيم؟!

هذي الطُّرقُ منعرجة ولن تستقيمَ إذا ما استقمنا، وتلكَ الخرائطُ مُبهمة ولن تتّضح إذا ما نظّفنا أعيُننا من الدّنس الذي يملؤها، وأقسِمُ لو استقمنا لاستقامت الطّرق واتّضحت الخرائط، هذا وعدُ الرّحيم لنا في سورة الجن {وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا}، لكنّنا ما استقمنا،

فما سُقينا سوى كأسَ الحنظل، ضَللنا الطّريق فضلّت بنا، سمعنا نداءات الله الكثيرة، لكنّنا ما استجبنا، فضِعنا، وبدأت مسيرةُ هجوِ الزّمان عندنا.

ثمّ من بعد ذلك كلّه، رفعنا أيدينا إلى السّماء، ألحّينا بالدّعاء فما استُجيبَ لنا، لأنّنا ما طلبنا من اللهِ العفو، هرعنا فورًا إلى حاجاتنا، نسينا أنّا مذنبون، ونسينا أنّنا ظلمنا أنفسنا. لِنأخُذ مثلًا على ذلك، لنفترض أنّك على خلافٍ مع أحد أصدقائك، ثمّ لنفترض أنّك ذهبتَ لتطلبَ منه المال، بالطَّبعِ لن يُلبّيكَ قبل أن تقدّم اعتذارك له، ولله المثلُ الأعلى طبعًا، إنّ الله كريم، لن يعجزهُ أن يقضي لكَ حاجاتك وأنتَ عاصٍ، ولكن تأدّب، ابدأ دعاءكَ دومًا بطلبِ العفوِ والمغفرة من الله، ثمّ اطلب ما شئتَ من الحاجات، ولن يرُدّكَ مُجيبُ دعوة المُضْطَرّ خائبًا، فلننظُر إلى دعاء سليمان عليه السلام {قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ} بدأ بطلب المغفرة، ثمّ طلبَ من الله المملكة، فاستُجيبَ له، إن تاب اللهُ عليك كفاك، وزادكَ من فضله.

إنّما الحياةُ الرّحيل

عندما تعلّق قلبُ يعقوب بيوسف أخذهُ الله منه، وعندما تعلّق قلبُ إبراهيم بإسماعيل أمرهُ الله بذبحه، هذه طبيعة العيش، هذه سُنّة الكون، هذه الحياة اللِّصّة، تسلبُ منّا ما نُحب، لتجعلنا خالصين لله تعالى، لتجعلنا نزهد عن خلقه وأذاهم، أو كما تقول المقولة الرّائجة:

"يريك الله النّقص في خلقه، لترى الكمال فيه وحده"

إنّما يبتلي الخلق بالفراق، كي لا يكونَ لأحدٍ سُكونٌ مع غير الله، وما أجمله من سكون وما أحلاها من طمأنينة، تلك التي تكون بجوار الرّحمن، ختامًا لن يبقى معك أحدٌ سوى الحيِّ الذي لا يموت، هذه الحياة دارُ الرّحيل، إنّما الحياةُ الرّحيل، كلٌّ من ركب معك في حافلة الحياة، سينزل منها يومًا ما، ليذهب إلى محطّته الأخيرة، ولن يبقى معك إلا الله.

لا تهرُب من العلاقات والأشخاص، ولكن جالِس النّاس قليلًا، وجالِس الله كثيرًا، وفي جُلوسك مع النّاس، ضع في الحُسبان بأنَّ هذا الجلوس قد يكونُ آخرَ جُلوسٍ معهم، فلا تتعمّق أكثرَ من اللازم، ولستُ أقلّل من قيمة الحياة الاجتماعية والاختلاط والتّعمق مع الناس، أنا مع ذلك تمامًا، ولكن زيادة العلاقات وزيادة التّعمق بها وبناء الآمال عليها قد يكون ملوّث للروح، أو كما كان يقول لي والدي قديمًا "كل شي بزيد عن حدو بيقلب ضدو"، فلا تتلوّث بهم كثيرًا، ولا تسمح للآخرين بأن يدوسوا بأحذيتهم المتّسخة داخل عقلك، أكثِر من جلساتِ الصّفاء مع الله، تلك الجلسات الشيء الوحيد الذي لن تندم لأنّك بالغتَ فيه، إنّ أنفسنا بحاجة لتزكية دائمة من خلال الطاعات، وقلوبنا بحاجةٍ لتطهيرٍ وتعقيمٍ يوميٍّ بالقرآن، هذه الحياة تُدنّس القلوب بمهارة، تملؤها غِلظة، الحجرُ الأسود في الكعبة عندما نزل من الجنّة كان أبيضًا، فسوّدتهُ خطايا بني آدم، هذا حجرٌ من الجنّة، سوّدته خطايانا، فماذا تفعل الخطايا بقلوبنا وهي من الأرض وليست من الجنّة، إنّ تطهيرَ القلوب عملٌ دائم، يحتاجُ المواظبة

والسّعي دونَ انقطاع، طهّر قلبكَ تَفُز، والسَّلامُ على من أصلحوا أنفسهم ولم تُدنّسهم خطاياهم.

الحياة مُهمّات

إنَّ ملذّات الحياة كلّها تكمُن في طرقاتها الوعرة، إنّ فرحة النّصر تأتي من بعد شجنِ الفشل، إنّ الحياة تشبه لحدٍّ كبير لعبة إلكترونية، فيها المهمات الّتي تَهَبُك شغف الرّحلة، فيها النّصر والهزيمة، فيها القوّة والضّعف، تخيّل كيف سيكون حالُ تلك اللّعبة دون مهمّات، ستكون مُبتذلة مُملّة، كذلك سيكون حال الحياة بدون صعوبات ومشقّات، الحياة مهمّات مستمرة، ما إن تنتهي من حُلم ما ومشقّة ما، حتّى تباغتك المشقّةُ الجديدة دون أن تشعُر، وهكذا تُمضي عمرك تُلاحق تلك الأحلام، تارةً تُلاحقها بشراسة، وتارةً تُلاحقها ببرودٍ مقيت، ولكن احذر أن يُلهيك ذلك عن الدّار الآخرة، أو أن يلهيك ذلك عن قبرك، لا تكن كالّذين قال الله فيهم:

{ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) }.

الحياة معركة مُستعرة، دُعاءك هو سلاحك في تلك السّاحة، صلاتك هي استراحة المحارب، قد تكون سجّادتكَ في المعركة ليست فارهة، اجعل قلبكَ فارهًا، لا فائدة من سُجّادٍ فاخر، وقلبُك مَحشوٌّ بالمعاصي، درعك المتين في هذه الملحمة هو القرآن، المشقّة ستلازمك، ستطحنك، هذه مشقّة تُلازم الطريق، ولكنّ أسلحتك ودروعك معك، فلا تُفرِّط بهم، كي تبقى زعيم تلك المعركة ومنتصرها الوحيد، إن النّاس كالمطارات في هذه المعركة، يوصلونك إلى سلّم الطّائرة، لكنّهم ليسوا مُستعدّين لأن يطيروا معك، هم أجبنُ من ذلك، وهكذا في الحياة سيضعونك في طرقاتٍ شاقّة، ولن يسلُكها معك أحدٌ منهم، ستسلُكُها لوحدك، أنت وخيبتُك.

فإذا ما كثُرت عليك المهمّات فذلك خيرٌ لك، لأنّ الحياة بلا مهمّات ستودي بك إلى الفراغ، الّذي سيقتُلُك تمامًا، واجه المُستقبل، ولو ببشاعة، ولكن لا تقعد وتركن إلى الماضي القاتل، لا شيء أسوأ من العبث بجُرحِ الزّمان، ناضل في سبيل مهمّاتك، أبدع في معركتك،

أخرج سيفك من غِمْده وأبدأ القتال، قد تُباغِتُكَ بعض الهزائم، لكنَّ المفازات كثيرةٌ جَمّة.

مِرسالٌ إلى وطن

هناك كتابٌ ما مهديٌّ لأوطانٍ مُتعبة، مهديٌّ لانتماءٍ لطيف، مهديٌّ لأحلامٍ ضاعت مِنّا في عَشِيّ يومٍ رمضانيٍّ جميل، مهديٌّ لوطنٍ غابَ عنّا حتّى تمزّقنا، هناك كتاب كُتِبَ لوطنٍ، ليس باستطاعته أن يقرأهُ بكلِّ أسف، رَغْمَ أنَّهُ حقًّا كُتب له.

_وهل تقرأُ الأوطان!؟

_نعم، الأوطان تملِكُ عُيونًا فاتنة تقرأُ بها

_إنَّك تُبالغ

_لا لستُ أبالغ، الأوطان تقرأ وتكتب أيضًا

_يا لك من سفيهٍ ومجنون

_حسنًا، فليبقى كلٌّ منّا على قناعاته

سيبقى ذاك الكتاب مبتذلًا وَمُمِلًّا ما لم تقرأهُ عَينا الوطن، ما لم تلمس صفحاته أيادي الوطن الدافئ، ذاك الكتاب قاحلٌ مُجدب إن لم يزاحم تلك الكتب في مكتبة الوطن، تلك المكتبة التي ما كان أحدٌ يملكُ الشّجاعة ليقربها، فكلُّ من اقترب منها لَقيَ حَتفه، كان الوطن يُحبُّها، يحميها بشدّة، وينظّفها باستمرار.

أيُّ خيبةٍ هذه، أتوجد خيبةٌ أكبر من أن يهجُرَكَ وطنٌ كامل، تلك الأوطان كانت سطرًا في كُتُبنا، صارت كُتُبنا برمّتها تحكي الأوطان، تريدُ أن تُخلّدها بطريقةٍ أو بأخرى، ما أعظَمَ الأوطان!

إذا ما وقع ذاك الكتاب بين أيادي الوطن في يومٍ ما، إذا ما ساقتهُ الأيّامُ له، نرجو أن يعلم بأنّ شعوبًا ما مشرّدة، وأنّها ترفض أيَّ وطنٍ آخر، ترفض كُربة الغُربة، شعوبٌ مُندثرة، تنتظر فرجًا، تنتظر عودة، تنتظر معجزةً مبجّلة تُعيد شعبًا ضخمًا إلى أوطانه، شعبًا لا يَسعُهُ أيُّ وطن، نحبُّ الوطن، ونعشقُ أرض الوطن، ونقدّس مُقلَ الوطن.

قال الشاعر:

"ونعشقُ الأرضَ التي لا هواء بها

ولا ماؤها عذبٌ و لكنّها وطنُ"

شاعرنا يعشق الوطن لأنّه الأصل والنّشأة فقط، أمّا نحن فإنّ عشقنا لأوطاننا أكبر، إنّها أصلنا وانتماؤنا الأبديّ، وماؤها عذبٌ وهواؤها سَلْسَال، أوطاننا بِمُقلتين برّاقتين، أوطاننا كاملة، لم تحرمنا خُضرة الحياة يومًا، وإذا ما كانت مُقلتا الوطن وطنًا بحدِّ ذاته، فكيف هو الوطن، هو مجرّتنا، فضاؤنا الواسع، وعالمنا المثالي، مصطلح "وطن" قليلٌ جدًّا على كوننا هذا.

كلُّ ما نرجوه أن تُشفى أوطاننا من أوجاعها، أن تعود العزيمة غزيرة فيها، وأن تتخلّص من كلُّ ما أنهكها، إلا من شعوبها، لأنّهم بطريقة أو بأخرى ما زالوا يردّدون:

"سنرجع يومًا إلى حيّنا

ونغرق في دافئات المُنى"

أعيدوا ذاك الشّعب المشرّد إلى أحيائه، وأغرقوه في دافئات المنى، قبل أن تحتلّه كآبةٌ سرمديّة، ويترأّسه انطفاءٌ أبديّ.

اترُك أثرًا

خيّاطُ الحيّ منذُ ذلك اليوم وحتّى الآن يمشي ببطء وهو ذاهبٌ إلى المسجد، ذلك اليوم الّذي رأيته فيه وهو يركض إلى المسجد فأوقفته وأخبرتُه بحديث رسولنا "إِذَا أُقِيمَت الصَّلاَة، فَلا تَأتُوهَا وَأنْتُمْ تَسْعَونَ، وَأتُوهَا وَأنْتُمْ تَمْشُونَ، وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أدْرَكْتُم فَصَلُّوا وَمَا فَاتكُمْ فَأَتِمُّوا"، من بعدها شكرني ومضينا، وبقيَ الأثرُ الطّيّبُ والبهجة يسريانِ في قلبي إلى اليوم.

العجوز الّذي يرتادُ كُرسيّ العجزة ويحومُ الطّرق كلّ يوم، صارَ عندما يراني، يُوقف سير مركبته، ويُفلت يداه بشكلٍ تلقائيّ عن عجلاتِ الكرسيّ وكأنّه علم بأنّه جاء من يُسيّر له الكرسيّ ويمشي به في الأحياء.

الطّفل الّذي كان يلعب أمام المسجد مع أولاد الحي، كنت أوزّعُ ابتسامةً وسلامًا عليه كلّما أراه، وأسألهُ عن حاله وإن كان يلزمه شيء، رغم أنّي

لا أعرفه ولا يعرفني، أتى يومٌ وأحبّ سؤالي الدّائم عنه، أحبّ بسمتي البسيطة له، فدخل الجامع يتبعها ويتبعني، ثمّ أحبّهُ، وتعلّق قلبُهُ به، فصار من المُواظبين على الطّاعات في المساجد.

ذاك الشّاب ما يزال يشكرني إلى اليوم على ما صنعته معهُ، حينما كنّا نصلّي التّراويح في ليلةٍ من ليالي رمضان، كان يصلّي محاذاتي، حينما رفع الإمام يديه للسّماء وبدأ يدعي، سالت دموع ذلك الشّاب، صار يبكي بِحُرقة، مُلِئ وجههُ بالدّمع، حين انتهينا قدّمتُ إليه بعضَ المناديل، وطلبتُ منه أن نشرب القهوة في مقهى ما، أخبرتهُ بعدَ أن خرجنا من المسجد أنّ دموعه كانت أجمل شيءٍ رأيتهُ على الإطلاق، بالبكاء نعبّر عن إنسانيتنا لا عن ضعفنا، ولأنّنا في زمنٍ، قلّما نجد فيه شابًّا يبكي على العلن، كانت دموعه تستحقّ أن تصنّف وكأنّها أجمل وأشجع ما رأيت، الشّجاع حقًّا هو الّذي لا يخافُ أن يُظهر ضعفهُ أمام الآخرين، وعمومًا الجبان عن المعاصي هو الشّجاع، يومها اخترنا الجُلوس على زاويةِ رصيفٍ بدلَ الجلوس في المقهى، هناك على زاوية الرّصيف

حيث الهُدوءُ والسّكون، حيثُ يجلس المنكوبون، صَمَتنا لِبُرهة، سألتهُ ما بك، فأغدَقَ عليَّ بما أهمّهُ وأبكاه، ثمّ بكى، فبكيت، وانتهى الحُزنُ السّحيق.

أفيضوا على الكونِ بالبساطة، الزموا طيّبَ الكلام، اتركوا أثرًا، ولو بكلمة، ولو ببسمة، ولو بتربيتةٍ على كَتِف.

مُناجاة

ربّاه، في كلّ مرّةٍ رفعتُ فيها يديَّ إليكَ، ما كنتُ قد أنزلتها إلّا بعد أن تتبدّد المخاوِفُ في قلبي، كلّما رفعتُ يديّ إليك أشعر بطمأنينةٍ تجري في عُروقي، تُهرولُ في قلبي آيةُ {إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ}، إنّا إلى الله نرغب في أن يوسّع علينا من فضله، فيغنينا عن صِلات النّاس والحاجةِ إليهم.

ربّاه، في كلّ مرّةٍ رفعت فيها يديّ إليك، خجلتُ أن أدعوك بشيءٍ لا أعلم خيره من شره، لا أعلم إن كانت عاقبتهُ خيرٌ لي أم شرٌّ عليّ، كنت دومًا أدعوك بدعاءٍ واحد "ربّ دلّني على الخير ويسّره لي، وقني الشّرّ وأبعدهُ عنّي"

لطالما شعرتُ بضعفي أمام عظمتك، لطالما شعرتُ بأنّني أظلمُ نفسي حين أدعوك أن تُعطِيَني ما منعتني، لأنّني آمنت بأنّ منعكَ هو الخير وهو عينُ العطاء، وأنّ الّذي منعتني منهُ هو وابلٌ من شرّ، كان سينهالُ عليَّ لولا أنْ صرفتَهُ عنّي، لطالما رضيت، ولكنّني تذمّرت في أحيان

كثيرة، كنت أعلم بأنّ لهذا الكون ربٌّ سميعٌ قريب، يُجيب الدّاعي إذا دعاه، ربٌّ خيرٍ يعلم أين يكمن الخير، هذا ما كان يمنعني أن أدعو بأشياء أريدها أنا، كنت دومًا أدعو بالأشياء الّتي يرضاها الله، الأشياء الّتي يختارها لنا، لا الأشياء الّتي نحن نختارها، ظاهرها خيرٌ وباطنها شرٌّ كثير.

يا ربِّ إنّي قرأتُ في كِتابك {فَلَولا أَنَّهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ(١٤٣) لَلَبِثَ في بَطنِهِ إلى يَومِ يُبعَثونَ}، ربّاهُ إنّي من الّذين يُسبّحونك بالغدوّ والآصال، أخرجني من بطنِ هذا الحُزن الّذي ابتلعني كما أخرجتَ يونس من بطن الحوت، أنقذني من هذه الظّلمات الكثيرة كما أنقذت يونس من الظّلمات الثّلاث، أنبتّ عليه شجرةً من يقطين، وأنا يا مولاي أنبتْ عليَّ نضارةً لا تفنى، وَهَبني وهجًا لا يَفنى.

يا ربِّ جئتُ لأدعوكَ بدعاءِ أيّوب، فخجلتُ أن أقول لك أنّي مسّنيَ الضُّر وأنا منغمسٌ في نعمك ونعيمك، ما مسّني ضُرٌّ يا سيّدي، إنّي مُنعّمٌ يا الله، ولكن مسّنيَ الحُزنُ والمشقّة وأنتَ أرحمُ الرّاحمين.

ربّاه، إنّ الرّوح ترتجف، وإنّ القلب قد ضَعُف، وإنّ الحول والقوّة كلّها لك، مُلِأت أيّامي بالعُسر، فأرني يُسرًا يَسرُّني، {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}، هذا وعدُ الله لنا، هذا وعدُ ربّ الكون، وعدٌ يجعل كلّ الأحزان تُهدم، وعدٌ يخلُقُ لنا من الصّعوبات سهولة ومن المشقّات مسرّات.

ربّاه، ما عدت أعرف بماذا أدعوك، الهموم تكاثرت وتراكمت في الصّدر بشكلٍ كبير، ما عدت أعرف من أين أبدأ بدعائي، ولكنّي مُتيقّنٌ بأنّك تعلم حالي، فغيّره إلى أفضلِ حال.

ربّاه، آنسنا بلطفك، إنّ السّلوى كلّها في سمائك، تولّنا برحمتك، إنّك أنت البرُّ الرّحيم، أهطل علينا رزقك، ولا تجعلنا من القانطين، بشّرنا يا الله ببشرياتٍ حسنة تُضيءُ الرّوح وتهبُ القلب وهجًا، بشّرنا كما بشّرتَ زكريّا بيحيى، بشّرنا كما بشّرت إبراهيم بإسحاق، واجعلنا من الفائزين بجنانِ النّعيم، وأبعد عنّا الخُسران المُبين.

رسائل سماويّة

إنَّ الأرض خاوية، خاليةٌ من كلّ سلوى، ليس بها سوى وحشة تنهش الأرواح، كلّ الانتماءات كاذبة، لا انتماءات على الأرض، كلّ الأشياء زائلة، كلّ الدّروب منتهية، لا شيء دائم على هذه الأرض، كلّ الأشياء معرّضة للانهيار في أيّ لحظة، وحدها الأحزان تتجدّد في القلوب، فتبقى عارمةً في تلك البُقعة، ويبقى شموخها طافح، كلّ الملاجئ موحشة وإن احتوتنا، كلّ الزّوايا مرعبة، كلّ الأماكن في الأرضِ قاحلةٌ مخيفة، وحدها السّماء ملجأٌ آمن، وحدها السّماء استقرارٌ جميل، ووحدها السّماء انتماءٌ أزليّ.

في السّماء نرى طيورًا تُرفرف قُلوبنا مع أجنحتها، تصعدُ وتنزلُ في الهواء بشكلٍ عجيب، فتعلّمنا دون أن تدري درسًا مهمًّا في الحياة، بأنّ الإنسان متقلّبٌ أيضًا، يصعدُ ويهبطُ كما الطّائر في السّماء، متشتّت بين

الشّدّة والرّخاء، بين العلوِّ والهُبوط، زقزقتها آلةٌ موسيقيّةٌ عجيبة، مَشروعٌ الاستماعُ لها.

في السّماء تُوجد الكثير من بلاسم الشّفاء، الغيومُ بلسمٌ، شفاؤه فتّاك، تُمطر فتبتلُّ قلوبنا، ويهتزُّ الطّينُ بشدّةٍ داخلنا، الغيوم أيضًا حكيمة كالطّيور، تُعلّمنا دون أن تدري حكمةً عظيمة، كلّ ما اسودّت الغيوم أكثر اقترب المطر، فنتعلّم ببساطة، بأنّه كلّ ما اسودّ العيش قَرُبت البُشرى، بأنّه كل ما عسعس اللّيل أكثر قَرُب الفجر والفلق.

النّجوم اللّمّاعة تمنحنا الأمل، تحفّزنا على العمل، بعضها يتجمّع فيُعطي وهجًا وشكلًا يسلبُ الألباب، وبعضها متفرّق وكأنّها مصابيحُ إنارةٍ وزّعت بانتظام في السّماء، هي أيضًا تُعطينا درسًا دون أن تعلم، تقول لنا بأنّ مقياس النّجاح هو السّير في الدرب، فالنّجمة الثّابتة قليلون من ينظرون إليها، على عكس النّجمة المتحركة، التي يَتَتبّع خطواتها الكثير.

في السّماء بدرٌ لمّاع، تُفتَحُ له نوافذُ القلوب، ليُنير عتمتها، ويغسل بُقعًا سوداء ملأتها، نجوبُ الشّوارع ليلًا، لنمتصّ من نوره الكثير.

في السّماءِ نيازكٌ تمشي على عُجالة، تظنّها بتلك العجلة تُلاحق أحلامها التي تهرُبُ منها كما تهرب أحلامنا منّا، تُسرع تلك النّيازك فتصطَدِمُ أرضًا وتتهشّم، فتعلّمنا دون أن تدري موعظةً صغيرة، مفادُها أنّ الإسراع والتّهور سيحطّمانك، تأنّى وتفكّر بهدوء وستمشي بسلام، ولن يُفلت من يدك شيءٌ من رزقك، يقول الشافعيّ في ذلك:

"وَرِزقُكَ لَيسَ يُنقِصُهُ التَّأَنّي

وَلَيسَ يَزيدُ في الرِّزقِ العَناءُ"

في السّماء قوس قزح، يُخبرنا بأنّ عوض الله دائمًا مُضاعف، تغتمُّ السّماء وتسودّ الغيوم، ثم تأتي البُشرى بالمطر، بعدها يأتي قوس القُزح، وهو عوض الله المضاعف، إنّ الله حين يُعوّضنا عن شيءٍ ما يُعوّضنا

كما عوّض إبراهيم، عوضًا مُبجّلًا، قال تعالى: {فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا}

لم يكتفِ بأن يَهبهُ إسحاق ويعقوب فقط، بل جعلهم من الأنبياء والصّالحين أيضًا، وفي الآية الّتي تلي تلك الآية، يقول الله جلّ في علاه: {وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا}

وهبهم الكثير من الفضل والإحسان والرّزق، وصيّر النّاس يثنونَ عليهم ويمدحونهم، ويذكرونهم بالذّكر الجميل، لخصالهم الحميدة وأخلاقهم الكريمة.

من هنا تعلَمُ بأنّ عطاءَ اللهِ غيرُ محدود، ودائمًا ما يكون عطاؤه زائدًا عن طلبك وإلحاحك، ومن هنا تقرأ اسمهُ "الكريم" بقلبك قبل عينك.

يعلّمنا قوس القزح أنّ الحياة مليئةٌ بالألوان، ولكنّه كاذب نوعًا ما، يُرينا ألوانَ المسرّة، ويحجبُ عن أنظارنا ألوانَ البُؤس، لكنّهُ جميل، جميلٌ ومُخادِع.

في السّماء تُوجد شمسُ النّهارِ المُؤنسة، تُوجد فيوجدُ معها أملٌ يغمُرُنا، تُشرق السّعادة في قلوبنا مع إشراقها، وتغرُبُ من قلوبنا السّعادة كلّما غربت شمسُنا، الشّمسُ عظيمة، عظيمةٌ جدًّا، السّماء بِرُمّتها عظيمة بكلّ ما تحتويه.

ختامًا، اطمئن، لستَ وحيدًا، هناك رسائِلُ سماويّة كثيرة.

شِقَاق

تغدو أرواحُنا أوطانًا مُتعبة إذا ما احتلَّ الشِّقاقُ قُلوبنا، إذا ما شُرِّد الأملُ من أعيننا، تغدو كلُّ الأماكن ضيّقة، كلُّ المتَّسعات شحيحة.

فِراقٌ عِملاق أصابَ قلبي في هذا الصَّباحِ البارد، فراقٌ سجن شغفي وقيَّدَ بسمتي، فراقٌ شكّل حاجزًا ضخمًا بيني وبين البهجة، لا علامات حزن واضحة على جسدي، لا ندبات في وجهي ولا دموع على وجنتيّ، ملامحُ وجهي هادئة تضخُّ الطّمأنينة في الرّوح، وحدهُ قلبي من أصابهُ إعياءٌ من رحيلكِ، يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ قلبي مُختبِئ في إحدى زوايا صدري، يُخَيَّلُ إليَّ أنَّهُ يرتجف، أشعرُ بأنَّ صِمَامًا من صِمَامَاتهِ قد أُغلِق، أشعُرُ بهِ مقبوضًا مثقوبًا وأحدب.

يُمكن أن أُشبّه ألم هذا الفراق بالألم الذي يُعانيه الغريق، تارةً يطفو فوقَ الماء فيشعر بالسّلام، وتارةً يبتلعهُ الموج فيُخنق بشراسة، وأنا كذلك مُتقلّب بين سعةٍ مُريحة وضيقٍ جزّار.

غيابُكِ أعياني، أمرضني، أفقدني اتّزاني، ما مرَّ عليَّ حزنٌ مثل هذا من قبل، اشتدَّ البردُ بقلبي، فأين غطاءُ كلماتك، أين الكلماتُ الحانية الّتي كنتِ تزرعينها في بُستانِ قلبي.

كان يستعينُ بالله في كلِّ مطبّات الحياة، في مطبِّ وداعها شُلَّ لسانُه، قُيِّدت أضلاعه، ما كان باستطاعته إلا أن يسجُد، وكأنَّه بسجدته الطَّويلة تلك يقولُ للرّحمن جئتُكَ مُفوّضًا إليكَ أمري كما يعقوب، جئتُكَ تاركًا في سجدتي هذه كُرَبًا لا تُفَكُّ إلّا بإذنك، فارفع عنّي أثقالًا جَثَمَت على صدري حتّى أهلكته.

أُصيبَ السّرطانُ بي

بعد أن كُنتَ ضحيّة الواقع لمدّة تسعة عشر عامًا، الآن أنتَ ولمدّة لا تعرف إن كانت ستطولُ أم تقصُر ضحيّةُ سريرٍ بملاءةٍ بيضاء، مودّعًا طموحاتٍ لست تعلمُ إنْ ما كنت ستستقبلها مُجدّدًا، مسألة السّرطان كما نعلم مسألةُ حياةٍ أو موت، هذه الحياة تدفّق مُستمرّ من المفاجآت، فجأةً تنتهي كلّ أحلامك، أو لنقل تنتهي أنت فتعجزُ عن تحقيقها، وفجأةً أُخرى تُصبح لديك أحلامٌ جديدة، أحلامٌ ضخمة، كأن تُمضي يومًا واحدًا دون جرعاتٍ كيميائيّة تهتِكُ شغافَ قلبك قبل أن تهتِكَ وجهك، أحلامي أضحت كثيرة بعد أن حالَ السّرطان بيني وبين أحلامي القديمة، أفكّر وأردّد، ما أجمل أن يكون لديّ حاجبانِ مستويان، ما أجمل أن يكون لديّ شعرٌ ولحية، إنّها أمنياتٌ تكادُ تكونُ مُستحيلةً عندنا، عندنا نحنُ الّذين انتهت أعمارُنا في زيارةٍ طبّيّة ذاتَ صباحٍ مُشمس!

أصابني من الكتل والحواجز ما أصابني في طريقي ومسيرة حياتي، أصابتني كتلةٌ في جامعتي عرقلت مسيرتي وتوفيقي، وكتلتان توسّطتا حكاية حُبّي وأنهتاني مكسورًا بعد أن ارتطمتُ بهما، كلّ الكتل لم تُطفِئ شمعةً واحدةً من قلبي، إلّا كتلتانِ سرطانيّتان مَلأتا رأسي، كتلتان جعلتا منّي ومن أحلامي الفائِضة كتلةً واحدة مرميّةً على سريرٍ بملاءةٍ بيضاء.

لم أُصب بالسّرطان، أُمّي تقولُ لي بأنّي سليم، أنا أثقُ بأمّي، حتمًا أنا سليم، حتمًا لم أُصب بالسّرطان، رُبّما أُصيبَ السّرطانُ بي!

يُجرّبُ المرءُ كلّ مشاعر الدّنيا حين يُصيبُهُ السّرطان، الحلو منها قبل المرّ، يُجرّبُ الزُّهد الحقيقيّ عن الأرض، ويقتربُ قربًا تامًّا من ربِّ الأرض، يُجرّبُ الأمل المُصطنع المبنيّ على بوحةٍ من الأسى، يُجرّبُ شعور السّجين، السّجين مُقيَّدٌ بقيدينِ في يديه، وسجينُ السّرطان مُقيَّد بكتلتينِ في رأسه، لمريضِ السّرطان أن يُجَرّب شعور الغريق، لكن لا غطّاسين ماهرين للإنقاذ هنا كما في الغرق الّذي نعرفُه، هنا تُوجد جرعات كيميائيّة ثقيلة جدًّا لإنقاذ غريق السّرطان.

عُذرًا لأحلامي، غادرتُكِ قبل أن أُنهي بعضًا منك وقبلَ أن أشرَعَ في بعضِكِ الآخر، عُذرًا للّتي أُحِبّ، غادرتُكِ قبلَ أن أُتِمّ عهدي وأضعَ لكِ خاتمًا في إصبعكِ، لكن لو تعلمينَ أنَّ الحياةَ وضعت لي كتلتينِ في رأسي لعذرتِني وعذرتِ غيابي، إنّي أُطالبكِ بالنّسيان، فنسياني أسهل بكثير من أن تقضي بقيّة العُمر مع "مريضِ سرطان"!

وأخيرًا، عُذرًا لأمّي، ما عادَ باستطاعتي أن أُقبّلَ رأسَكِ كُلَّ صباح.

حنينٌ وماضٍ شجين

أعيشُ داخلي، وأُصفّقُ لي، لمواصلتي الحياة رغمَ نُدوبي، ولكنْ أريدُ أن أبكي، أريدُ أن أفِرَّ بعيدًا، أحيانًا قد تبلغ الحياة من القسوة ما قد يجعل المرء يفرُّ هاربًا إلى كوخٍ في جوفِ جبلٍ بعيد.

إلى أين نهرب؟

نحن ممزّقون حدّ الهلاك، فبماذا نهرب؟

بأجسادنا المهترئة؟

أم بقلوبنا المحدّبة؟

أم بأرواحنا المنهكة؟

نهرُب بما داخل قلوبنا، بحبيبٍ، أو حلمٍ عتيق، بإيمانٍ عظيم باللهِ الرّحيم، النّصرُ الرَّصين أن نهرُب بإيماننا سالمين.

طُعنتُ في ذاكرتي، والطَّعنة في الذّاكرة أقسى من الطّعنة في الظّهر، أن يطعنَ الإنسانُ إنسانًا آخر في ذاكرته، يعني أن يذكّرهُ بخيبةٍ قديمة، يعني أن يعرِضَ أمامهُ حُلمهُ المكسور، هكذا تُطعنُ الذّاكرات، كانت نهايةُ ذاك الحُلم ذات طعمٍ مُرٍّ كالعَلقَم، كان حُلمًا هاربًا، وقد تمزّقَت أوصالي تشبُّثًا به، وكان تركُ الحِبال هو السّبيل الوحيد للنّجاة، كانت حقيقةً قاسية، الحقائق جميعُها قاسيةٌ مؤلمة، لكنّ تجاهلها أشدُّ إيلامًا منها بكثير، أن تحاول أن تُبعِد عنك صوتَ قلبكَ الذي يُخبرك بأنّ هذا المكان سيؤلمك أقسى من أن تُجيبَ قلبك وتهجُر ذاك المكان، ولكن كيفَ ننسى، كيفَ نُوقِفُ حركة سيرِ الذّكريات في عُقولنا، كيف نقضي على الحنينِ الذي يَحشونا؟

عن دواءٍ للحنين أبحَث..

هل من بائِع؟

أنا أشتَري..

هذا الحنينُ يعصِرُني، هذهِ الوحدة تنهشُني.

لستُ قلقًا من الواقع أو المُستقبل، لا أعلمُ بأيّ أرضٍ دُفِنَ قلقي، لكنّني مُتيقّنٌ بأنّهُ ماتَ ودُفن، ولستُ خائفًا من العواقب، الشيء الوحيد الّذي يُؤرقني ويُنهكني هو الحنين والنّظر في الماضي الشّجين.

وإليكَ أنتَ، وأنتِ، وأنتُم جميعُكم، وإلى كلّ من رأى حزن الشّوق في عيناي، أقولُ لكم: اقتُلوني بالرّصاص، اقتُلوني بالحجارة، أميتوني جلدًا، أميتوني بأيّ طريقة، ولكن لا أُريدُ أن أموتَ شوقًا.

رسالةٌ منَ القُبور

إنّ المكانَ هنا مظلمٌ جدًّا، لا شيء سوى عتمةٍ قاهرة، وضيقٍ يكادُ يطحنُ أعضائي، إنّ الحياةَ نعمة، وإنّ الهواءَ نعمة، وإنّ ضوء الشّمسِ نعمة، وإنّ وجودك فوقَ التُّراب بحدِّ ذاته نعمة، اشكروا الله، واعبُدوه حقَّ العبادة، وإيّاكم أن تنسوا أن تدعو الله بأن يجعل في قبوركم نورًا، لو كان باستطاعتي النطق الآن لما دعيتُ إلا بأن ينوّر الله قبري، ولكن فاتَ الأوان، ودائمًا ما يفوت الأوان، رُبَّ ضِيقٍ في الدّنيا أعطانا سعةً ونحن تحت التّراب، وبئسَ مُتّسعٍ ولهوٍ فوق التّراب جعل الضّيق جزّارًا في قبورنا، لقد بالغ الضّيقُ في هدري في هذه الحفرة، لو باستطاعتي أن أحوقل، لو بإمكاني أن أكبّر، كم ألهتنا الحياة الدنيا عن الآخرة، كم غرّتنا توافه الغايات، آهٍ لو كان بإمكاني أن أشقَّ هذا القبر الضّنين وأخرُجَ منه، آهٍ لو خرجت، لقضيتُ عمري ساجدًا، يا أهل الأرض، يا من تترفّهون فوق التُّراب، إنَّكم مُنعّمونَ حدَّ التَّرف، إنَّكم في بُحبُوحةٍ

عظيمة، إنّكم بخيرٍ وسعة، إنّها فُرصتكم فلا تُضيعوها، أحسنوا، اسجدوا، هلّلوا وكبّروا واحمدوا، واحفظوا ما استطعتم من الكتاب المُبين، رُدُّوا الأماناتِ إلى أصحابها، لا تظلموا، واعفوا واصفحوا، هي سنينُ قليلة وتُدَسّون تحت التّراب، حينها لن ينفعكم ظلمكم واستكباركم في الأرضِ شيئًا، حينها لن ينفعكم إلّا عملكم الصّالح وما سجدتم من سجدات، هي سنينُ قليلة وتصبحون جوارنا تحت التُّراب، وستُسألون عمّا ارتكبت أيديكم من أوزار، وستندمون إنْ لم يكن بحوزتكم عملٌ صالح، أسرِعوا وبادروا، ابحثوا عن المنكوبين ومدّوا لهم يدَ العون، ابحثوا عن التّعساء، وارسُموا ابتسامةً على وجوههم، ابحثوا عن المشرّدين، وابنوا لهم من طيّب الكلام أوطانًا، ابحثوا في كلّ الطّرقات عن المنسيّين وتذكّروهم بمعروفٍ ما، وافرحوا إن وجدتم من تقدِّمون له الخير، افرحوا إن وجدتم من تعملون به عملًا صالحًا يُنجيكم.

أيُّها المُدَخِّنون، أطفئوها، اكسروها، حطِّموها، إنَّ الهواءَ يُباعُ في القبور، أتستبدلونه وهو مجانيٌّ لديكم بأدخنةٍ لعينة تُسوّدُ القُلوب قبل

الرّئتين، أيُرضيكُم عيشُكُم بنصفِ رئة، لتُسكنوا النِّصف الآخر بدخانِ سجائركم، ما رأيتُ مُدخِّنًا عاقلًا، وما رأيتُ عاقلًا مُدخّن، معظم المدخّنين لا يملكون سوى نصف عقل، وقد فقدوا هذا النّصف بعد مسيرتهم في التّدخين، وإنَّ من يُقلِع عنهُ منهم هو الّذي ما يزالُ لديهِ يسيرٌ من العقل، لا تُقلعوا عن التّدخين، فقط أديروا مفاتيحَ عُقولكم، وستنجونَ ممّا تقتُلون به أنفُسكم.

شبابُنا اعوجّت أصابعهم إثرَ حملهم المُستمر لهواتفهم، يا ليتَهُم حملوا همَّ الأمّة فاستقامت قلوبهم، يا ليتهم حملوا المصاحف قبل أن يأكلها الغبار، وقبل أن تُرفع الآياتُ من الأرض، يا ليتهم عَقلوا بأنَّ هنالك خاتمة، وأنَّهم لو استبدلوا المعاصي الّتي يرتكبونها بأعمالٍ صالحة لأفلحوا في الدُّنيا والآخرة، يا ليتنا استفقنا من غفوتنا قبلَ أن نُوضعَ جُثثًا في القُبور، يا ليتنا لم نَعصِ الله أبدًا.

مُجدّدًا، إنَّ الحياةَ نعمة، لا تُضيعوها في توافهِ الأمور، واستجيبوا لأمرِ الله {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ}، فاغتنموها في رضى الله، لتنالوا بها الدّار الآخرة والجنّةَ العالية.

يقول ماركوس أوريليوس:

"عندما تستيقظ صباحًا

فكّر في كم هي مِيزَة ثمينة

أن تكون على قيدِ الحياة

أن تتنفّس، تفكّر

تستمتع، وتحب."

فاشعروا بقيمةِ ما تملكون، وفكّروا في هذهِ المِيزَات الثّمينة، قبل أن تُطبِقَ عليكم القُبور أغلالها.

الشّقاء سعادة

ما النّوافذ إلا مُتّكَأٌ لأطرافِ الأيادي، ما كانت النّوافذُ يومًا مُتّسع، ما عاد في العمر مُتّسعٌ لنا نحن الحالمون، الكادحون، والباحثون عن الأمل في كلِّ ما تخُطُّهُ الحياةُ لنا، في أعيُنِ العابرين، في دموعِ المنكسرين، بين الحُشودِ وفي الأزقّة الّتي تغصُّ بالوحدة، نحن قومٌ تتّسعُ قلوبنا بعد كلِّ نكبة، واعينَ على حياةٍ جديدة تستحقُّ أن تُعاش، في النّكباتِ مسرّاتٌ لنا، والمسرّاتُ عندنا بلا ضِحكَات، قلوبنا تضحك، ولا صدى ولا صوت لضحكات القلوب، ملامحنا باتت هادئة تبعثُ في النّفس الطّمأنينة، لا يُغرينا فراغٌ كبير بأنّ هناك مُتّسع، بأنّ هناك ضحكات يجب أن تصدَح، نحن يُغرينا المُتّسع الّذي نجدُهُ في زخمِ الأعمال، إنّ مُتطلّبات الواقع تفرضُ علينا نسج سعادة بين أعمالنا، إنّ الحالة التي يُرثى لها جعلت منّا دُمى مُتحرّكة، تضحكُ الدُّمى في أيادي الأطفال لأنّها تُريدُ أن تُباع، لأنّها تُريدُ أن يُطلق أحدٌ سراحها من بين الرُّفوف، تضحكُ الدُّمى في

عملها لأنّها محكومةٌ بالإعدامِ بواقعٍ لم يترُك لنا من الفاكهةِ إلا قشرتها، لا تُرضينا الانتصاراتُ الصّغيرة، ولا نرنو لأن نصبح جبابرةً مُتعجرفين، نحن نفرح بالانتصارات الّتي سُحِقَت فيها أرواحنا، الّتي سحبت منّا خُيوط الكسل، الّتي نسجت منّا مُقاتلين شُرساء، تُرضينا الانتصارات الّتي كان تواجدنا بها هو النّصر، بغضِّ النّظر عن حُجومها، نُريد أن نعيش اليوم باتِّساعٍ مُبَطّن داخلَ أعمالنا، لا نُريد أن نملكَ زِمامَ الأمور جميعها، ولا نُريد أن ترجَحَ كفَّةُ السَّعادة دومًا لنا، نُريد من الحياة أن تطحَنَ أفئدتنا، أن ترمي بنا في معاركها، نُريدُ منها أن تجعلنا سيفَ المعركة، آلةَ الحرب، ونُريدُ طاقةً لهذا كُلِّهِ يا الله.

أرجحةُ طُرق وربٌّ رحيم

أُغلِقَت الطُّرق في وجهك، سُدَّت المخارج، كلُّ الأشياء تسيرُ على نحوها غير المعتاد، ما عليك إلا أن تكون مرنًا، بأن ترضى وتتأقلم مع كلِّ تغيُّر، لأنّك بين يدي رحيم، والرّحيم يعرفُ الطّريق الّذي فيه عطاؤك ومنحُك وهُداك، لأنّه أرحمُ بكَ منك، فما ضرّكَ أن تتأرجحَ بكَ الطُّرق يومًا، ما ضرّك أن تضيع وأن تتوه وتسقط ثمّ تقوم وتتعثّر مرّةً أخرى، ما ضرّك كلّ ذلك وحبالُ الله تعتني بك وتمسكك بقوة، ما ضرّتك دوّاماتُ الحياةِ بشيء، ما ضرّك ضيقُ صدرك إن كنت تسمع وتردّد {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}، كنّا قد تهنا وضاقت صُدورنا عشرات المرّات، وكان الله يَدلُّنا ويشرح صدورنا بطرائقهِ العجيبة، مشكلة الإنسان أنّه عندما يسقط ينسى كلّ المرّات الّتي تعثّر فيها من قبل وظنّ أنّه لا مخرج له منها ومن ثمّ أخرجه الله بلطفه وحسن تدبيره، ينسى كلّ المرّات الّتي أخرجهُ الله فيها من الظّلمات إلى النّور، فيبدأ مسيرة

الشّكوى والكنود بدلَ أن يحمد ويحتسب، بدلَ أن يقول ولو لمرّة واحدة "حسبيَ الله وهو نعم وكيلٍ لي" لو أنّ المرء يرى ويذكر لطفَ الله في تجاربه السّابقة ما جزع، لو أنّه رأى الله في فعله وقدرته ما استكان وما انطفأ، ولكنّه ينسى أو ربّما يتناسى ويتعامل مع مصائبه الحديثة وكأنّها المرّة الأولى الّتي يسقط بها، يُسقطك الله كثيرًا لتتعلّم، يُريدُكَ أن تكونَ عظيمًا، يُريد منك أن تراهُ حينما أوشكتَ على السّقوطِ فأقامك، وحين سُدّت الأبواب فاستقبلك، يُريدُك أن تعلم أنّه رحيم، وأنّه قادر، فتذكُرَ على الدَّوام أنَّ الجبّار سيجبرك ويدلّك ويمهّد لك الطّريق كما هي العادة، فإذا ما علّمكَ البلاءُ شيئًا، فأنتَ البلاءُ لذاكَ البلاء.

صُراخٌ داخلَ رأسي

لماذا عليّ أن أحملَ كلّ هذهِ الأطنان في رأسي كلَّ يوم؟!

لماذا عليَّ أن أحملَ كلَّ هذهِ الأسئلة الّتي ليس لها أجوبة في ذاكرتي؟!

ما الذّنب الّذي اقترفهُ جسدي ليضْطرَّ على حمل هذا الوزن الثّقيل الّذي يزنُهُ رأسي؟!

أريدُ أن أفهم ما فائدة أن أعرف إلى أينَ تذهبُ النّداءات غيرُ المُجابة، وإلى أينَ تذهبُ الأصوات غيرُ المسموعة، أودُّ أن أفهمَ لماذا تعتَصِرُني هذهِ الأفكار الجُنونيّة!

لماذا عليَّ دائمًا أن أتعامل مع هذا العالم كأنّه هاتف نقّال في وضعيّة "صامت"؟!

كيف أتأقلم مع فكرة أنّه لا مفرَّ من أن يُصدر المرء أصواتًا؟!

كيف أتأقلم مع فكرة أنَّ هذا العالم في هذا العصر مليءٌ بضجيجٍ يكادُ لا ينتهي؟!

هل من الضّروري أن يلعب الأطفال ويصرخوا؟!

متى يختفي هذا الصّخب الطّافح؟!

متى أنعم بالسّلام والصّفاء الرّوحي والذّهني؟!

ما زال النّور يؤرقني، وما زالت الأضواءُ تسكُبُ حرارة اشتعالها في قلبي..

هل شاخَ هذا العالم؟!

أم أنّ قلبي قد شاخ مبكِّرًا؟!

عقلي عجلةٌ لا تتوقّف عن الدّوران، عقلي هو العجلة الّتي تمشي بي في هذا الطّريق، من يقنعه بأنَّ هناك مفترقات طرق ومطبّات يستوجب أن نستريحَ بها قليلًا؟!

متى نستريح استراحة مُحارب على جانب الطّريق؟!

من يقنع هذا الدّماغ المتحجّر بأنّه صار كالقنبلة ما إن لمستهُ فكرةٌ انفجر!

إنّه عندما يُصيبنا صُداعٌ شديد وانزعاجٌ عارم من الأصوات، تُصبح الأصوات تدخُلُ إلى رؤوسنا عن طريقِ رؤوسنا لا عن طريقِ الآذان، أتتخيّل شدّة الّذي يحصُل!

إنّ أسوأ ما قد يُصارعُهُ المرء هو ألّا يتأقلم مع ضجيج العالم الطّافح، بأن يُصبح القبر المنزل الوحيد الّذي يجدُ به سكينته.

وما كانَ مُنتصرًا

طريقُكَ مسدود، مُثقل بالمتاعب، تائِه، كلّ الأشياءِ السّيئة تسيرُ على نحوٍ أسوأ، تتجرّع علقم الحِرمان، تاهت بكَ الدّروب، إنّه ضعفُ الحيلة الّذي لا ضعفَ بعده، تحتاجُ من يعزّيك، من يربّت على كتفك، من يزيلُ عن روحك غمامة اليأس، من يخبرك أنّ لوجودك قيمة، من ينفض عنك غبارَ الطّريق، لا عزاءَ لأرواحنا المُتعبة إلّا الوقوف على باب صراطِهِ المُستقيم، لا حِبالَ تنتشلُنا من دوّاماتنا إلا حبالُ الله، قف على سجّادتك القرمزيّة وناجِ من بيده النّجاة، ما زلت تستطيع أن تقف بين يدي الرّحمن، تدعوه كثيراً وتتضرّع لهُ، إنّه انتصارٌ بطريقةٍ خفيّة، انتصارٌ مُبطّن، انتصارٌ تغلّفهُ رحمةُ الرّحيم، يكفيكَ من هذا النّصر أن تشعر بأنّ رحمة الرّحمن تُحاوطك من كلِّ جانِب.

تُبصِرُ عينكَ إنسانًا آخر قد يكون ملكَ الدُّنيا بما فيها، جمعَ من الأموالِ ما قد جمع، يلبسُ أحسن الثّياب، يرتادُ سيّاراتٍ ضخمة، ولكنَّ حياته

تحملُ من البُؤس ما لا يقوى إنسانٌ على حمله، حياته عاقر لا تُنجِبُ الفرح، ابتَعَدَ عن الله فابتعدت السّعادة عنه وبقيت أشكالها، امتلك كلّ أسباب السّعادة، لكنّه فقد رضى من يقذِفُ السّعادة في قلوبنا، إنَّ النّأي عن الله حُرقةٌ ما بعدها حُرقة، كُلُّ من نأى عن الله أضاعَ الطَّريق، باتَ تائهًا، لا رحمةُ الرّحيم تُحاوطه، ولا قوّةُ الجبّارِ تُصبّرُه، ولا هُدى ولا طمأنينة في خطواته، ترى الذُّعر ظاهرًا في عيونه، تراهُ مهزومًا ومغلوبًا، ومن هنا تَعلَم بأنّ كلَّ نصرٍ من دون الله هزيمة وإن بدا نصرًا.

املأ قلبكَ بآياته، ردّد وتدبّر {وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا}، اعلم أنَّكَ من دون الله ميدانُ هزائم وإن لمَعَ النَّصرُ في عينيك، إن لم ترعاكَ عينُ الله فأنتَ مهزوم مهما رأيتَ من نصرٍ مُزيَّف، إن لم ينصرك الله فلا ناصرَ لك، لا هزيمة والرّحمنُ معك، الخسارات الّتي تراها بعينكَ القاصِرة على أنَّها هزائم، إن كانت مع الله، فهي نصرٌ عظيمٌ مُبجّل، لا هزيمةَ مع الخلق إن كانَ الخالِقُ معك، النّصر أن تفوزَ برضوانِ رحمانٍ رحيم، كلُّ ما دونَ ذلك زيف.

وإنّي في معرَضِ نصّي هذا أقصِد وأقول وأردّد: لا تَبرَح الأعتاب، ستُجبَر، وكُلُّ من نأى عنِ الله مكسور وسيزدادُ في ذلك.

سعادة ضائِعة

لأوّل مرّة يتسنّح لي رؤية هذا العالم عن قُرب، هذا عالمٌ مُرعب، هذهِ أرضٌ مُوحشة، لأوّل مرّة أستشعر ماهيّة الأشياء وملمسها ومظهرها، قديمًا كنت لا أرى ساعةَ الجدار، لكنّني كنتُ أعلم بأنّها تدلّني على الوقت، كنت لا أرى مدفأة المنزل، لكنّني كنت أعلم أنّ هذا المكان يُعطيني الدّفء، عندما يكون المرءُ مملوءًا بسعادةٍ طافحة لا ينظر إلى الأشياء وتفاصيلها، يكونُ مُحلّقًا بسعادته، ثمَّ عندما يخيب يبحث عن خيبته في كلِّ الأماكن، يتحسّس ماهيّة الأشياء، عقارب السّاعة الّتي ما كان يُدقّق في تفاصيلها يومًا، باتت اليوم تُذكّره بعقارب الحياة الّتي لدغته، عندما ينتهي المرءُ من سعادةٍ عارمة طويلة إلى خيبةٍ قذرة يعودُ غريبًا، يعودُ مُبتدئًا، وكأنّه خُلِقَ للتّو، يؤولُ به الحال إلى تفكيرٍ عميق وتأمُّلٍ أعمق، يصيرُ يفكِّر في كلِّ شيء، يُصبِحُ الدّماغُ عجلةً عجولة لا تتوقّفُ عن الدّوران.

صارَ اليوم بعدَ خيبةٍ طحنت جوفه يفكّر في مدى انسجام أزرار القميص مع لونه، يتأمّل زخارف النّافذة بإحكام وكأنّه يتفحّصها، ما عادت تكفيهِ صورةٌ كبيرة للأشياء، إنّ المرء حين يفتَقِدُ السّعادة تغورُ عيناهُ في الأشياء وتفاصيلها، تارةً يبحثُ فيها عن سعادته الّتي اختفت بغتة، وتارةً أخرى يُحاول إيجاد سعادة جديدة تُرمّم خيبته، هذا شخصٌ فقدَ اللّهفة، باتَ يُمارس سياسة عدِّ الأيّام، الأيّام الّتي أضحت ثقيلةً على قلبه، ويفكّر، ويسألُ نفسه مرارًا وتكرارًا، ماذا لو أمضينا العُمر هكذا؟

ماذا لو صارت السّنين بأكملها مُبتذلة؟

ماذا لو ضربَ الوجومُ أفواهنا؟

هل الحياة متقلّبة بينَ الوهجِ والانطفاء؟

أم أنّهُ ما من وهجٍ جديد؟

واللهِ إنّنا نَخشى أن يكونَ هذا الانطفاءُ مَحطّتنا الأخيرة.

حِقبَة السّلام

مرّت حِقبةٌ زمنيّةٌ أخرى، حِقبةٌ زحفت فوقَ الرّوحِ زحفًا، صرتُ اليوم في حِقبةِ السّلام، حِقبةِ التّصالُح مع الطّرق ووعورتها، صرتُ اليوم أمسِكُ القلم، لا رجفةَ في يدي، ولا تجاعيدَ على وجهي، همّةٌ كبيرة تُداهمني، أيّامي باتت مُطَمْئِنَة، ما عاد الصّباحُ مقرونًا بفنجانِ القهوة المُعتاد، صارت الصّباحات مُكتظّة ببهجات الصّبا، صارَ السّلامُ عُنوانًا عريضًا لأيّامي، الورقة بيضاء كما قلبي، والقلَمُ اليوم مُسالم، قلمي يومًا كانَ حاقِدًا شَرِس، الطّريقُ مُعبّدٌ بشكلٍ جيّد، كان قديمًا الطّريق يسرقُ قدمي كلّما عدوت، صرتُ الآن أرى ابتسامةَ العابرين على أنّها ابتسامة، كنتُ يومًا أخالُ العابرين مصّاصي دِماء، كانت فوارغ الرّصاصات تُثيرُ الذُّعر في قلبي، اليوم بتُّ أزرعُ الأزهار فيها وأغمِسُها في قلبي، أنا اليوم سُنبُلةٌ مُخضَوضِرة، كُنتُ قديمًا شوكةً جافّة، صارَ الفجرُ في قلبي طمأنينة، بعدما كانت أصواتُ الذّئابِ فيهِ تعوي في

قلبي، ما عادَ اللّيل مَحلًّا للرّهبة، صرنا نعرف أنّ السّماء ونُجومها مَلاذُنا من العتمة، أعُدُّ أوراقَ الزَّهرة اليوم وأضحك، كانت يومًا الزّهرة مبتورة، أنا اليوم مرجٌ يانع، كُنتُ يومًا كُلَّ الصّحاري، كانَ قلبي غاباتٍ ومتاهات، صارَ اليوم فُندُق، لا دخولَ للغُرباء، لا دخولَ إلّا لمن كانَ الصّدقُ حليفَهُ، صارت ذاكرتي لا تَسَعُ من الماضي إلا أجمله، إلى قمامة التّاريخ كُلّ ماضٍ أنهكنا وأهلكنا، اليوم كلّ شيءٍ باتَ يسيرُ للأفضل، مُجريات حياتي تبدّلت، نظرتي للأشياء كلّها تغيّرت، صارت الطّمأنينة تَشُنُّ غزواتٍ مُكرّرة على قلبي، صارت أيّامي زاهية تَضجُّ بالسّلام، لم يَعُد في القلبِ مُتّسعٌ لِحُزنٍ جديد.

على فراشِ الموت

سيأتيكَ يومٌ تمتَدُّ فيهِ على فراشِ الموت تتمنّى كوبَ الشّاي ذاك الّذي كنت تشربه مُتمدّدًا واضعًا قدمًا على الأخرى، أنتَ الّذي هجرتَ المساجد في أوجِ صحّتك، ستتمنّى الآن لو تكون لكَ قدرةٌ على أداءِ ركعتين فيها، أنتَ الّذي لطالما مشيتَ في الأرضِ مُغترًّا بذاتك، أعلى أمانيكَ اليوم أن تكونَ جذع شجرة محنيّ، يمشي بين النّاس بانحناءٍ سرمديّ، البارحة كُنتَ تُلقي الشّتائِم على مُديرِ عملك، تُوبّخ العمل والعاملين، تُوجّه اللّعنات هنا وهناك في كلّ لحظة، ستودّ حينها أن تعود إلى العمل بضعفك الّذي أنتَ به الآن، ستودّ أن تعيشَ بذلك الضّعف في كلّ الأماكن، ستتمنّى حقًّا لو أنّك لم تكُن مُتجبّرًا أبدًا.

على فراشِ الموت، ستشعر ولأوّل مرّة بالقيمة الحقيقيّة للصحّة، ستشعر بنعمٍ كُبرى كنت تجهلُها، حينها ستنطِقُ بِلسانٍ فيهِ غصّة: {وَإِن تَعُدُّوا

نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}، ستُحاولُ أن توزّعَ ابتساماتٍ كثيرة على الزّائرين، علَّها تكونُ أثَرَكَ الطّيّب الأخير قبلَ موتك.

أنتَ الآن وحدك تُعاصر وحدة الفراش، تنتظر زائرًا سيقبِضُ روحك، زائرًا يُدعى عزرائيل، لطالما أيقنّا جميعاً بأنّ له زيارةً مُفاجئةً لنا، جعلنا لكلّ شيء حساباتٍ وبراهين، غدونا فيثاغورث في هذه المعادلة، لكنّه الموت، الحساب الوحيد الّذي لطالما أفلَتَ من حساباتنا، بالأمسِ كنتَ تلعنُ الحياة عند كلّ مطبّ، لو كنتَ تعلم أنّ الأيّام ستودي بكَ إلى كرسيّ العجزة، لقفزت فرحًا عند المطبّات، بدلَ أن تندب الطّرقات وتتنحّى جانبًا، أو تُوقف قطار العمر والأيّام عند أوّلِ مطبٍّ يُجابهك، بالأمسِ كنتَ تقول أنّ الحياةَ لا تَهَبُكَ السّعادة، واتّهمتها عبثًا بأنّها سلبتَ سُرورَ روحك، لكنّك الآن ستعرفُ حقًّا أنّ النّهوض من سريركَ صباحًا بحدِّ ذاتِهِ سعادة، وستعرِفُ حقًّا أنَّ ذهابكَ الرّوتينيّ إلى عملك كُلَّ صَباح كنزٌ ثمين، نحنُ غارقونَ في نعمٍ ضخمة، لا تَسمَحُ لنا سعةُ بصيرتنا الضّيّقة بإدراكها.

أحرُف من شعور

ما الكتابة إلّا عمليّة ترجمة الشّعور لكلمة واحدة أو جملة، عمليّة إعادة تدوير ما اهترأ من المشاعر في دواخلنا، وكم يحتاجُ المرء أطنانًا من المشاعر حتّى يخرج بنصٍّ أدبيٍّ أو كتاب.

وددت أن أكون يومًا نصًّا أدبيًّا، أن أكون شعور، أن تقرأني الأعين، لا أن تنفيني كما نفتني في الطّرقات.

وددت أن أستطيع سفك هذا الكمّ الهائل من المشاعر داخلي بالكتابة، أن أكون جزّاراً في المشاعر في كلّ نصٍ أدبيّ، وددت أن أشبع النّصوص شعورًا، أن أنفض ذاكَ الكمَّ من المشاعر على ورقة، أن أجدَ سبيلًا واحدًا أدفقُ منهُ هذه المشاعر، لكن ما أشنَعَ أن تكونَ المشاعرُ سجينةً ضمنَ قلبٍ بحجمِ قبضةِ الكفّ، ما أقسى ألّا تستطيع أن تُطلقَ سراحها بتنهيدة.

عُمقي يَعِجُّ بالمشاعر، وفي الخارج لا توجد حبالُ نجاة تُخرج شعوري العالق.

ما من شيءٍ أشدّ قُبحًا من أن يُجهِضَ المرءُ شعوره، فتغدو النّصوصُ ركيكة، تملؤها تراكيبٌ ضعيفة لا مُتراصّة.

نُصوصي ركيكة، مشاعرها مُجهضة من رحم الشّعور.

أن تكونَ لديك مشاعر طليقة يعني أن تُغدِقَ على الورقِ الأبيض بالزّهور، يعني أن تملأ مُفكّرتكَ ألوانًا فتّاكة، كلونِ زهرةِ عبّادِ الشّمس.

أخشى أن تسحَبَ المشاعر خيطها الأخير من عُمقِ قلبي، أخشى ما أخشاه أن يأتي يومٌ أودُّ فيه أن يكون لديّ شعورٌ واحد، أن أقذفَ به بكلمةٍ صارمة، أخشى أن يجفَّ الشُّعور من الكلام، أن ينهار الشُّعور المُتّكِئ على حروفي، أخشى أن يصيرَ حبري رخيصًا، أخشى ما أخشاه أن يُخَطّ كلامي على الجُدران.

يُرعبني أن يصبح الشّعور مُعدمًا، أن أبحث عنه في كلّ حيّز، أخافُ أن أبحثَ عنهُ في شقوقِ أسفل الأبواب فتبتلعني تلكَ الشّقوق!

ومن أين للمرء بالشّعور إن كانَ عقيمَ مشاعر، إن كانَ يستنزِفُ أطنانًا من طاقته ليبكي، ولكنّه أخيرًا لا يستطيعُ أن يبكي، من أين يستطيع هذا القلب أن يستنبِطَ شعورًا، هذا القلبُ الّذي مُلِئَ بالحصى، الحصى الّتي قتلت عصافيره.

وحدهم من أصابهم خمولُ المشاعر، يعرفون معنى أن تمُرَّ فوقهم غيمةُ شُعور، وحدهم يعرفونَ قيمةَ ما تبقّى في الصَّدرِ من عصافير.

أوزّعُ ابتسامةً بقلبٍ مخلوع

كلّ يومٍ تُشرِقُ عينايَ على ذكرى قذرة

ذكرى انكسار الحلم الثّمين في قلبي

أضع يديْ على قلبي

تبتلعُ الفجوةُ يديْ

أقتلعُ نفسي من الفراش

أوزّع ابتسامةً بقلبٍ مخلوع

أنظرُ في المرآة

أرى كائنًا لا أعرفه

كائنًا لا بريقَ في عيونه

لستُ أنا

شخصًا يُشبهني

حتمًا يُشبهني

أوزّعُ ابتسامةً بقلبٍ مخلوع

أخرجُ من الغرفة

يرجمني أبي بكلماتِهِ الحادّة

توبّخني أمّي

في اللّيلة الماضية لم أتخلّص من القُمامة

أوزّعُ ابتسامةً بقلبٍ مخلوع

أرتدي ملابسي

وربطةَ العنق

وبعضًا من الالتزامات

أرميها على ظهري

أهربُ من المنزل كمن يهرُبُ من زنزانة

أُغلِقُ باب المنزل

وهنا تحديدًا أوزّع ابتسامةً بقلبٍ مخلوع

أقطعُ الطّريق

أصطَدِمُ بمتسوّل

يطلبُ قطعًا نقديّة

لا قطعَ نقديّة في أجيابي

أمشي عدّةَ أمتار

أشعرُ بالذّنب

بأنّي خُنتُ الفقير

أعودُ خطواتٍ إلى الوراء

أقتلعُ جيبَ بنطالي

أُهديهِ إيّاه

ومن ثمَّ أوزّعُ ابتسامةً بقلبٍ مخلوع

أصِلُ الجامعة

زملائي يحتسون القهوة

أتذكّرُ جيبي الّذي منحتُهُ للمتسوّل

أقتلعُ الجيبَ الآخر

علّي أحتسي بثمنِهِ القهوة

أضحيتُ الآن بلا جُيوب

لقلبي جيوبٌ كثيرة

ما عادَ باستطاعته حملُها

أوزّعُ ابتسامةً بقلبٍ مخلوع

أدخُلُ الحرم الجامعيّ

تصفعُني العلاماتُ في لوحةِ الإعلانات

عدد المواد الّتي اعتلت كتفي

صار اليوم يحتاجُ فاتورة

أوزّعُ ابتسامةً بقلبٍ مخلوع

أدخُلُ القاعة

لا مقعد خشبيّ يسعُني وأحلامي المهترئة

لا يُمكن لقاعة بأربعةِ جُدران أن تَسَعَ خيبتي

أخرج من القاعة

وقبل أن أخرُج أوزّعُ ابتسامةً بقلبٍ مخلوع

أعودُ إلى المنزل

وفي طريقي أُحصي كم ابتسامةً استهلكت

ابتسمتُ عددًا لا بأسَ به اليوم

تبقّى ثلاثُ ابتسامات في صندوقِ ابتساماتي

ألتقي مُصادفةً بكِ يا عزيزتي

هنا فقط أوزّع ابتسامتين بقلبٍ مُحلّق

ألتقي بأحدِ الأصدقاء

هنا لا ابتسامات بقيت لتوزّع

بقيَ في جُعبتي ابتسامةٌ واحدة

أوزّعُها لأمّي حينما ستصفُني بالفاشل ريثما أعودُ إلى المنزل.

لكنّهم رحلوا!

ينتهي بكَ الأمرُ بعدَ سنينَ طويلة من الصّداقات المُزيّفة والعلاقات الضّعيفة كشباكِ العنكبوت في ظُلمة غُرفتك، تُجالسُ خيبتك، تُلقي اللّوم على الجدران الّتي لم تسندك في وقت اخترت كتف الأصدقاء سندًا، تشربُ القهوة على مهل، وفي ثفلها ستجد لونًا بُنّيًّا يوحي باحتراقهم، ستضحك عليك النّوافذ والأبواب، وكلّ أثاثات المنزل، سَيُخَيَّلُ إليكَ بأنّك تُجالسهم لبرهة، تضحكون، وتتمازحون، لكنّهم رحلوا، رحلوا بلا أعذار ولا حتّى سابقِ إنذار وكأنّهم لم يكونوا هنا يومًا، كانوا ولم يكونوا وكأنَّ وجودهم كانَ يُشبِهُ الوجود، لتكتشِفَ أنَّ الصَّداقة ما كانت إلا صدقة وانقضت، جميعُهم اليوم راحلون، جميعهم ماضون، لكنْ يا ليتهم حزموا حقائبهم معهم عند المضيّ، غادروا وبقيَت ندباتُ رحيلهم في قلوبنا، انتهى عقدُ صداقتهم معك، وأنتَ الآن وحدك، تُخبِرُ الجُدرانَ صنيعَهُم.

اليوم أضحى الوجود مرادف اللّاوجود في قاموسي المُبتكر من جُعبة الزّمن.

اليوم أدركتُ أنّني ولطيلة أعوام ما كنتُ إلا محضَ معبر

تعبرُني الضّحكات والابتسامات..

تعبرني صيحاتُ الأصدقاء..

تعبرني الأفراح دونَ أن تُلقي التّحيّة..

تعبرني بهجةُ الأيّام..

تعبرني شموعُ العمر..

تعبرني الأشياءُ كلّها، لا سلامًا ولا كلامًا ولا تحيّة، صَنَعوا مِنّي معبَرًا، يا لَيتَني كُنتُ المَحَطَّة.

عندَ درجة الصّفر

حينما نُعلن استسلامنا، ونرفع راياتنا البيضاء ضمنَ السّاحة، حينما تنفدُ ذخائرُ الهمّة منّا قبل ذخائر الأسلحة، وتحديدًا عندَ درجة الصفر، ننظُر إلى الهزائم الّتي تركناها خلفنا، ننظرُ إلى ضحايا المعركة، ننظر إلى وقتٍ أضعناه في ساحةٍ ليس لنا نصرٌ بها، حينها نلقي نظرةً في ما مضى، تدمعُ أعيُننا من هولِ المشهد، ننظرُ بحسرةٍ في جُعبةِ الزّمن، جُعبة الزّمن مُهترئة، ظهرَ الشّجن على صفحاتها، رجحت كفّةُ الحزن على كفّة السّعادة، غلبَ اليأسُ فيها الأمل، بلغَ الانطفاءُ فيها أقصى وأعلى مراحله، سرنا بقلوبٍ حافية في الدّروبِ الشّائكة، أضاعتنا المتاهاتُ بغتة، في كلّ ليلة تطرق الصبابة أبواب قلوبنا، توقظنا في كلّ صباحٍ عثرة أو نكبة، المشقّةُ ملأت أرواحنا، مزّقتها، صَقَلتنا التّجارب، طحنت الأيّامُ جوفنا، امتلأ عالمنا بالفظاظة، قضينا أعمارنا نلهثُ في طُرقاتِ الغير، أصابَ الخريفُ قلوبنا، اعتزلتنا الطّمأنينة، حُمّلنا

بالبؤس، تأرجحت بنا الطّرق، تلاشينا من فرطِ الشُّعور، فاضت الدّموع في أرواحنا، فاضت فسالت على الوجنتين ولم تجفّ، حاضرنا باتَ مُهترئ اندثرت فيهِ نواصي الأحلام، توشّحت الرّوح بالرّماديّة، صارت أجسادنا واهنةً كخيطِ العنكبوت، نفدت حصّالةُ الضّحكات من جعبتنا، ابتسامتنا الممشوقة غادرتنا، شيءٌ ما كان ينقصُنا في حِقبةٍ زحفت فوق أرواحنا زحفًا، هي حِقبةٌ لم تدخُل في تاريخنا النّضاليّ، هي حِقبةٌ مفقودة، جُزءٌ من جُعبةِ الزّمن مفقود، لا شكَّ أنَّ رياحًا قد أضاعته.

كُنْ سماويًّا

هناكَ وقتٌ يصلُ القَلبُ فيهِ إلى دَرَجَةِ الصِّفر، تَغدُو كلُّ الأشياءِ على الأرضِ باهِتةً لا بَريقَ لَها، رُبَّما العيونُ ما عادَت تَرى البَريق، رُبَّما العيونُ طَغى عَلَيها السَّواد، يَوَدُّ فيهِ المَرء أن يَفِرَّ إلى السَّماء يَوَدُّ لَو أنَّهُ يَستَطيعُ أن يُعانِقَ السَّماء وَأن يَترُكَ الأرضَ لِأهلِ الأرض، ما ضَرَّهُ لَو استَغاثَ بِالسَّماء وَما ضَرَّهُ لَو تَرَكَ حُطامَ الأرضِ لأهلِ الأرض، كُلُّنا نُريدُ أن نسافرَ في الفضاءِ الواسِع، كُلُّنا فينسنت فان خوخ حينَ قال:

"أريدُ أنْ أسافِرَ في النُّجوم، وهذا البائِسُ جَسَدي يُعيقُني"

ولكنْ، ولأنَّ الأرضَ سجنٌ وُجِدَت الجاذبيّة الأرضيّة، الجاذبيّة اللّعينة، نيوتن رُبَّما كانَ يُفَكِّر بِالسَّفر في النُّجوم فَجابَهَتهُ الجاذِبِيَّة، حَتّى الأرضُ حاقِدة نَحنُ نُريد السَّفَرَ وَالفِرارَ مِنها وَهي تَجذِبُنا بِقُوّةٍ نَحوَها، وَلكن إن تَأمّلنا قَليلًا لَوَجَدنا أنَّهُ بِإمكانِنا أن نُسافِرَ بِقُلوبِنا في النُّجوم وفي ما بَعد

الغُيوم، ما ضَرَّ أجسادَنا لَو بَقيت في الأرض وأرسَلنا القُلوبَ في رِحلَةٍ لِلنُّجوم..

وَلكن كيفَ يكونُ ذَلك؟

بِبَساطة ارمِ جَسدكَ في الأرضِ مُتصالحًا، مُسالِمًا، عافيًا، وَاذهَب بِقَلبِكَ إلى سجّادَتك، صَلِّ، ادعُ اللهَ كَثيرًا، اطمَئِن، وَعانِق السَّماء، وإيّاكَ أن تسقُطَ منها.

مُريحةٌ جدًّا فكرة كونكَ سماويًّا، لن تُهمَّك الأسبابُ على الأرض، لن يُهمّكَ ضعفُ إمكانياتك، فقلبك في سماءٍ من أبدَعَ كلَّ شيء، ذاكَ الضّيق الّذي يعصرك، والّذي تظنُّ أنّه لا مخرجَ لك منه، سيختفي عند أوّلِ دعوة، ستبدأ وتفكّر بأنَّ مُعجزاتٍ ستحصُلُ لِتُنقِذك، ستنظرُ إلى السّماء، حينها ستذكُر أنّ الّذي رفعها بِلا عمد قادرٌ على أن يرفَعَ البلاءَ عنكَ بلا مُسبّباتٍ أرضيّة، ناجِ الله، إنّهُ قريب، إنّهُ قال: {فَإِنِّي قَرِيبٌ}، عامِلهُ باليقين ليُعاملكَ بالمُعجزات، اصعَد بقلبكَ إلى الغُيوم وتَشبَّث بها، كُنْ

سماويًّا، نَحنُ خُلِقنا في السَّماء ورُجوعُنا إليها، وَطُوبَى لِمَن لَم يَتَلَطَّخ بِقَذارَةِ الأرض بَينَ فَترَةِ الخُلوقِ وَالرُّجوع.

الحياة بينَ رُكام الموت

هُناكَ حُروبٌ تَدُكُّ الأرض

وَدِماءٌ تُعصَرُ في شَتّى أنحاءِ العالَم

ثَمّةَ ألحانٌ حَزينة تَجوبُ البِلاد

وَآلةُ حَربٍ سَتُمحِينا عن الوُجود.

مَدافِع

صَواريخ

رُكام

وَابتِساماتٌ عَريضة بَدَأت تَنجَلي

أشجانٌ تَطحَنُ كاهِلَ الشُّعوب

هالاتٌ تَملَأُ شَوارِعَ الوُجوه

وَالقُلوبُ يا سَيِّدي مَخلوعة.

وَلكن هُنالِكَ حَياةٌ مَكنونة بَينَ أطنانِ الخَرابِ هَذه

وَهُناكَ شَعبٌ صامِدٌ أبِيٌّ عَنِ المَذَلّة.

مَجازِرُ تَملَأُ الضّواحي وَالمُدُن

وَالمَوتُ شائِعٌ مُتمدِّد يَغزو ما استَطاعَ أن يَغزو

أُمّهاتٌ تَبكي

أطفالٌ تَصرُخ

شُبّانٌ وَشابّات في اندِثار

وَالبَحثُ عَنِ الحَياة مازالَ سَرمَدِيّ

هذهِ البِلادُ تَنهار

فَتُشَيّدُها ضِحكَاتُ أطفالِنا

هذهِ البِلادُ تَندَثِر

فَيَبنيها إصرارُنا

هذهِ البِلادُ تَتَهالَك

فَنُقَوّيها بِنيرانِ الرّجاء.

لِيَضرِبوا بِنيرانِهِم ما أرادوا، وَلِيَصنَعوا بِنَهجِهِم ما وَدّوا أن يَصنَعوا

لا نِيرانَ تَعلو فَوقَ نِيرانِ رَجائِنا

وَلا صَنيعَ لِأعداءِ الله في أرضِ الله.

رُكامُ مَنازِلِنا نُحدِثُ مِنهُ سَلالِمَ صُعودِنا

وَالرّاياتُ مَرفوعَةٌ كَما رُؤوسُ أبطالِنا

وَالحَياةُ قائِمةٌ بينَ رُكامِ المَوت وَتِلالِ المَجازِر

لا شَيء يُطفِئُ بَصيصَ الثِّقة في أعيُنِنا

وَلا باغٍ يَستَطيعُ أن يُوقِفَ سَعيَنا في وجهِ الحَياة.

نَبتَغي مِنَ اللهِ الخَير، وَنَرجو السّلام

نَدعو وَنَدعو وَالكَريمُ كَريمُ.

أنتُم عُظماء

للّذينَ صفعتهم النّكباتُ على وجوههم، لمن ساروا بقلوبٍ حافية في هذا الطّريق الشّائك، للّذين يشعرون بالمجهود الّذي تبذُلهُ أجسادهم في حمل رؤوسهم، لمن عارك الفقد فهزمه، لمن فُقِد، لمن كان منسيًّا، للّذين رُكنوا في الزّوايا، لمن تجسّدت الطّمأنينةُ على هيئتهم، للمُتجوّلينَ في الصّباح، للباعة، للأمَّهاتِ كُلِّهِنَّ، وَلكلّ أبٍ في هذا الكونِ الكبير، لمن مهّدَ لنا الطّريق، إلى كلّ من كان بوصلةً لنا بدلَ أن يجعلَ من الخرائطِ متاهات، إلى كوبِ الشّاي، ثُمّ مجدّدًا إلى كوبِ الشّاي، إلى الوطن بكلِّ نكباته، إلى من امتلأوا سكينة، إلى العابدين في المساجد، وللّذين خاضوا ميادينَ التّجارب، وأشعلوا فتيلَ أدمغتهم بدلَ أن يوصدوها، للكادحين، والعاملين، والمتعلّقين بالأمل ولو كان يتجسّدُ على هيئةِ ريشة، للمُسالمين الّذين مَشَوا في طريقِ الضِّباع بِلا بُندقيّة، وللّذين أكلت التّجارِبُ قلبهم عبثًا، لمن جابه أعاصير الحرب، لمكسوري الخاطر،

ولجابري الخواطر في كلِّ مكان، للمربّتين على الأكتاف، لماسحي دموع الباكين، للأطفال الّذين نثروا البهجة في كوننا، للمُوفينَ بوعودهم، للمُحافظينَ على الودِّ في قلوبهم، للأجداد، والجدّات، للبُسطاء، ولكلّ من كان سَلْسَالًا كالهواء، لبائعي البالونات، للنّساء اللّواتي لم يجعلنَ من أنفُسَهُنَّ سلعة، لقاصراتِ الطّرف، لمن ابيضّت عيناهُ من الحزن كيعقوب، للحائرين الّذين ما توقّفوا يومًا عن البحثِ عن أنفسهم، للّذين لم يجدوا أنفسهم من بعد المشقّة، للمنتحبين على هذا السبيل، وإلى كلِّ من مشى في الطّريقِ بقلبٍ أعرج فحاول وعارك، ومشى واتّكَأ، وركض ثمَّ لهث، وَهَزَمَ وَهُزِمْ، إليكم جميعًا، مرحبًا من صفحاتِ المُستقبل، أنتُم جميعًا عُظماء.

حرٌّ ومنسيّ

اليوم صرنا نبحث عن النّسيان والحرّيّة أكثر مما كنّا نبحث عن الطّمأنينة والسّعادة، نقرأ عنهم الكتب، نبحث عنهم في الأزقّة، في وجوهِ العابرين، وفي كوب الشّاي ومكعّبات السُّكّر، نسأل عنهم بكثب، ما معنى أن تكون منسيًّا؟!

ما علاقةُ النّسيان بالحرّيّة؟!

وما معنى أن تكونَ حُرًّا؟!

وحينما سنحت لنا الفرصة بأن نسأل عن أماكن تواجدهم قيل لنا:

النّسيان والحرّيّة يتكدّسان في زوايا المقاهي على الأرائك أو على المقاعد الخشبيّة، وعلى امتداد الرّصيف في عيونِ المتسوّلين الّذينَ نساهم الطّريق فبقوا صمدةً على زوايا الأرصفة.

أن تكونَ منسيًّا يعني أن تشربَ الشّاي على مهل دونما أن يُذكّركَ أحدٌ بهمومك المكدّسة، دونما أن يُراقب أحدٌ نظراتك الغريبة في مكعّب السّكّر، أن تكون منسيًّا يعني أن تُحدّقَ في فنجانِ القهوة لترى أشلاءَ من رحلوا، أو تُحدّقَ بالفراغ فترى قطارَ العُمر يمضي، تارةً تراهُ بعجلات، وتارةً بلا عجلات يزحَفُ فوقَ الرّوح زحفًا.

لا داعيَ لأن نربطَ مفهوم النّسيان بمفهوم الحرّيّة، فهما جزءان غير منفصلان لا يتجزآن عن بعضهما البعض، توأمان وضعهما بطنٌ واحد، أن تكونَ منسيًّا يعني أن تكونَ حرًّا، وأن تكون حرًّا، يعني أن تضع مكعّب السّكّر في فنجانِ القهوة، دونما أن يحاسبك أحدٌ على مثل هذه الجريمة، القهوة مقدّسة، فلا تُفسد قداستها بالسّكّر، أن تكون حرًّا يعني أن تسرق ابتسامة أحد المارّة دونَ عقوبةٍ ينصُّ عليها القانون، أن تكون حرًّا يعني أن تخطفَ نجمةً من السّماء تُضيءُ بها السّبيل، دونما أن تُوضع في الزّنزانة، أن تكونَ حرًّا أدبيًّا يعني أن تسرقَ نصًّا أدبيًّا كاملًا بنقاطهِ وفواصلهِ دونما علامة تنصيص، ودونما أن يُحاسبكَ أحدٌ على

هذهِ السّرقة الأدبيّة، أحيانًا قد تكونُ الحُرّيّةُ نَهبًا، ولأنّ هذا النّص يحكي الحرّيّة والنّهب، فمن الطّبيعيّ أن يكونَ لهُ الحقّ في أنْ يسلبَ ويَتَمرّد، فإنّي أضَعُ في نِهايتِهِ نُقطتين لا واحدة..

إجهاض

يبدأ الأمر بموهبة صغيرة، ثمّ تتالى على قلبك النّكبات، تُباغتك المطبّات في منتصف طريقك، ثمّ تتراكم الأحزان في الصّدر، يُرافق وجودها هناك بحّةٌ في الصّوت، وانخفاضٌ في مستوى الدّهشة، وبضع شُعيراتٍ بيضاء اللّون تخلّلت شعركَ الأسود قبل موعدها، التّجاعيد صارت تُرى بالعين المجرّدة في وجهك، إنّه الانطفاء الّذي سيصلُ بك إلى إشعالِ قلمكِ المُميّز، يبدأ الأمرُ بالفقدان، بوحدةٍ تنهشُ الصّدرَ قبلَ الرّوح، بكآبةٍ تسحبُ بساطَ المسرّةِ من تحتِ أقدامك، إذا ما ضاق صدرُكَ اتّسعَ لسانُك، إذا ما تحاشدت الكلماتُ في الحنجرة ستتقيّؤها نصًّا دفعةً واحدة، إذا ما ضاقَ بكَ سروال الزّمن، نبعت كلماتٌ أخرى من القلب، نبعت وتكاثفت إلى حنجرةٍ غصّت بالكلمات، ثمَّ يبدأ المرءُ بمحاولة إطلاق سراح الأحرف والكلمات، بأن يكتبَ أحزانهُ، بأن يُدوّنها نصًّا، يُقرّر أن يجعلها تاريخًا يُقرأ، فيوقفهُ حبرٌ متجمّد أبى أن يسيل فيغدو سائلًا، يتعثّر

فينهض، ثمّ يتعثّر فينهض، ثمّ يصلُ القلب إلى درجةِ الصّفر، يبدأ المرءُ بإجهاضِ الكلمات من الحنجرة، يبدأ بإرخاءِ قبضةِ قلبه، يبدأ بتفريقِ حشودِ الكلمات من الحنجرة، لتحشدَ من جديد على الورقِ الأبيض.

إنَّ إجهاض الكلمات يُخرِجُ نصوصًا ركيكة كما هذا، يتوجَّبُ عليكَ ابتلاعُ مفردات وتراكيب أخرى، بأن تقرأ أدبًا أو حُزنًا أو مسرّة، ليزدادَ مخزونُ المرادفات في جُعبتك.

يعتريكَ الصّمتُ بشكلٍ أكبر، يصبحُ الشّعور مرادف اللّاشعور في حضرةِ انطفائك المُميت، تبدأ بفقدانِ الشّغف تجاهَ الأشياء، تتعثّر في حبّ القراءة، كلّ ذلك سيُعَزّز غزارةَ الكلمات في حلقك، فتنسابُ برقّةٍ على مُفكّرتك دونما إجهاض.

خانتهم الطُّرقات

معظمهم قتلوا بالهواجسِ والتّفكير، صعقوا بكهاربِ الوجد، هاموا حتّى بانت التّجاعيدُ على قلوبهم قبلَ الوجوه، مُلِئت أيّامهم بالشّدائد والكُرَب، قَضوا أعمارهم عبثًا، بدت على وجوههم الشّيخوخة، يركضون في الطُّرقات كأنّما في سباقِ ماراثون هربًا من براثنِ الواقع وانحطاط الأشباح في تيّاراتهم العقليّة، يعضُّونَ على عقولهم بأفكارهم السّوداويّة، ماتت قلوبهم، وتخلّدت أجسادهم، يرمونَ بثقلها على المقاعدِ الخشبيّة كأنّما هُنالك ثأرٌ بينهم، جميعهم وضعوا أصابعهم في آذانهم خشيةَ أن تتسلّل الأفكارُ إلى داخلِ أدمغتهم، اتّخذوا الأرائكَ والزّوايا موطنًا، قدّسوا العزلة تقديسًا، كُلُّ أولئكَ خانتهم الطُّرقات، لا عناوينَ لهم، ولا طرقات، احتلَّ المشيبُ رؤوسهم، وغزا الأرقُ أعيُنهم، طحنتهم عجلةُ الحياة، فاض الدّمع من مُقلهم، أمضوا لياليهم محدّقين في أسقف غرفهم الرثّة، بدلَ أن يحدّقوا في النّجوم، وبدلَ أن يَصِلُوا لها بهممهم، حُشِيَت قلوبهم

بالهموم، فظهرَ على أجسادهم التّعب والمشقّة، أصابَ قلوبهم الشّلل، فما عادوا يعرفون للحلم طريقًا، في كلّ ليلة يُوقظهم شبحُ الذّكريات، يجوبُ بهم أنحاءَ جُعبةِ الزّمن، في كلّ زاوية من جُعبةِ الزّمن خيبة، عند كلّ بقعةِ ظلام شمعةٌ مُطفأة، في كلّ طريقٍ من الجُعبةِ انكسار، وفي كلّ الانعطافاتِ كوارث، ثمّ على امتدادِ البصر وما قبلَ خطِّ النّهاية مطبّات، ضاعَ العمرُ أسفلَ إحداها، وحدها جُعبةُ الزّمن تروي قصّةَ أعمارهم، تحكي تجاعيدَ وجوههم وقلوبهم.

رغبات

أريدُ أن أكونَ مجرى النّهر البارد، لأنعشَ القلوبَ المتعبة..

أريدُ أن أكونَ حضنَ الأمّهات الدّافئ، فأنشرَ الدّفءَ للمُرتجفين..

أريدُ أن أكونَ عمود إنارةٍ في حيٍّ قديم، لأملأ النّور في قلوب من عاصروا العتمة..

أريدُ أن أكونَ شجرةً فأظَلّلَ المتسوّلين على الأرصفة..

أريدُ أن أكونَ طريقًا لا يسرقُ أقدامَ المارّة، أريدُ أن أكونَ طريقًا شريف..

أريدُ أن أكونَ نجمةً أمام نافذتها..

أريدُ أن أكونَ نافذةً لكلّ من ضاقت بهم الأرائك..

أريدُ أن أكونَ كوكبًا أو نجمًا تسعني مجرّةُ عينيها..

أريدُ أن أكونَ لمرّة واحدة محطّة، سئِمتُ من كوني معبرًا للعابرين..

أريدُ أن أكونَ أريكةً للمتعبين والكادحين..

أريدُ أن أكونَ سلّمَ صعود لكلّ من يَئِسَ من القيعان..

أريدُ أن أكونَ قطعةً نقديّةً في جيبِ عاملٍ لا يملكُ ثمنَ كسرةِ خبز..

أريدُ أن أكونَ فرشاةً وألوانًا لكلّ طفلٍ يُريدُ أن يرسم فراشةً أو طائر..

أريدُ أن أكونَ حُلمًا بلا أجنحة، أريدُ أن أكونَ حلمًا ثابتًا لا يطيرُ من بين الأيادي..

أريدُ أن أكونَ ضمادةً بيضاء لمن كَسَرت الحياةُ أطرافَ قلوبهم..

أريدُ أن أكونَ إشارةَ مرورٌ خضراء، لمن أوقفتهم الحياةُ والمطبّاتُ في منتصفِ الطّرقات..

أريدُ أن أكونَ طريقًا لمن تاهت بهم الطّرقات، لمن غدت لهم طرق المداخل الواحدة متاهات..

أريدُ أن أكونَ حبلَ مشنقةٍ للحكّام..

أريدُ أن أكونَ منديلًا لمن قضوا أعمارهم ينتحبون على الطّريق..

أريدُ أن أكونَ دمعةَ فرحٍ على الوجنتين..

أريدُ أن أكونَ زهرةً تعلو كلَّ بندقيّة..

أريدُ أن أكونَ فارغةَ رصاصة..

لا للقتل، لا للرّصاصات الممتلئة.

أريدُ أن أكونَ رايةَ الصّلح، أريدُ أن أكونَ رايةً بيضاء..

أريدُ أن أكونَ هُدنةً غير منقوضة..

أريدُ أن أكونَ عهدًا غيرَ مقطوع..

أريدُ أن أكونَ بلسمًا لمن تركت الحياةُ في قلوبهم ندبة..

أريدُ أن أكونَ خيطًا لمن ثقبت الحياةُ جيوبَ قلوبهم..

أريدُ أن أكونَ إبرةً في صدرِ كلّ مُعتدٍ مُتخاذل..

لا أريدُ أن أكونَ أنا..

استبدلوني بشجرة، أو عامودِ إنارة، استبدلوني بأيِّ شيء، عدا أن أكونَ أنا.

نصوصٌ معتوهة

أبدأ نصًّا أدبيًّا وأنتهي بآخر، أتعرقَلُ بين سطورِ هذهِ اللّغة، أتوهُ بينَ جمالِ التّراكيبِ والمفردات، فواصلي تفصِلُ نصّينِ كاملينِ عن بعضهما لا جملةً عن أخرى، أسكبُ الحبرَ الأسودَ من قلبي على الورقةِ البيضاء فيتلوّن العالم بالرّماديّ، مُتهوّرٌ جدًّا لا أُولِي اهتمامًا لقوانينِ السّير في اللّغة، تُدهِشُني النّقاط الرّأسيّة، لكنّني أبدأ رسمها من الأعلى إلى الأسفل، أضعُ النّقطة العُليا فالسّفلى، تعوّدتُ هذا السّيناريو في سنواتِ عُمري، كلّ الأشياءِ تبدأ طافحةً عارمة ثمّ تنحسر، أمقتُ الفواصل الّتي تعترِضُ طريقي، لا أطيقُ النّقاط الّتي تُجابِهُني في النّهاية، لا أُطيقُ النّهايات ولا أُطيقُ كلّ ما يذكّرني بها، أُفَضِّلُ أن تُوضَعَ في نهايةِ النُّصوص ثَلاثُ نقاطٍ لا واحدة، خُصوصًا تلك النّصوص الّتي تُكتَبُ داخلها الأحزان، هي نصوصٌ تغصُّ بالحزن، تكادُ نقطُ النّهاية تخنُقُها، كيف تَسَعُ المأساةُ في نصٍّ صغيرٍ ذو نقطةٍ في آخره تَمنَعُهُ من التّنهّد،

إنّ ثلاثَ نقاطٍ في النّهاية تجعَلُ النّصَّ يسيلُ حبرُهُ فيغدو باردًا باهتًا، تغدو الأحزانُ مُستريحةً ضمنَهُ، يُصبِحُ بإمكانها أن تتّسِعَ أكثر.

عشرونَ عامًا من شَظَفِ العيش وما أزالُ نُقطةً على حرف، ألا أصيرُ يومًا حرفًا تتوسّطُني النّقاط!

تُحاصرني حروفٌ أخرى دومًا، تخنقُني، دائمًا ما أكونُ في المُنتصف، يدايَ تمتدّانِ للجميع فأصيرُ حبيسَ المُنتصف.

أنا حرفٌ لَثَويّ كلّ من قرأني عضَّ على لسانِهِ من الدّهشة، نطقي مُستَعصٍ على التّائهين الّذينَ لم يعرفوا يومًا طريقًا إلى لغتهم.

إنّها فلسفةٌ أدبيّة من النّوعِ الّذي لا يُطاق، إنّهُ الضّيقُ المُتراكِمُ فوقَ الصّدور يجعَلُ الكلماتِ تنسابُ بخفّةٍ من اللّسان دونما معنى.

المشقّةُ في قلبك

تبقى الطُّرقُ مُحفّرةً في عينيك، تلكَ الّتي جَرَرتَ فيها مخالبَ الخيبةِ بكلِّ قسوة ذاتَ صباحٍ قاسٍ مُتّجهًا نحوَ جامعتك تتجرّعُ مرارة الوحدة، حاملًا على ظهرك همومك المكدّسة، موادكَ الجامعيّة العصيّة عن النّجاح، حاملًا في قلبكَ أحلامكَ المُمزّقة، حاملًا في جيبِ بنطالك خيبتك، خيبتُكَ بهم كبيرة، تكدّسُها في جيبِكَ تكديسًا.

ولكنْ كلّ هذا في الطّريقِ مُصطنع، لو أنّكَ نظرتَ قليلًا في الأمر لوجدتَ أنّك من فرّط بالطّرق، أنت من جعلَ استقامتها انعراجًا، أنتَ الّذي نَهَرتَ أمَّكَ بقسوةٍ ذاكَ الصّباح، لَسَعتَ أباكَ لسعًا بلسانك، أشعلتَ حروب المعاصي داخلك، أنهكتَ نفسكَ وأتعبتَ كاهلك، ثمَّ تطلبُ من الطّريقِ أن تكونَ مستقيمةً لا انعراجَ فيها ولا مطبّات، المشقّةُ في قلبك لا في الطّريق، ما عليكَ إلا أن تعود إلى أمِّكَ جارًّا أذيالَ النّدم، تقبّلُ يديها وتصيح رضاكِ والجنّة، رضاكِ والجنّة، تطلُبُ من والدكَ ابتسامةً،

تعجنُ الابتسامة، تخبزها رضى ووداد، تُخبِرُ الله أنّك تعضُّ على أصابِعِكَ كُلَّ صباحٍ ندمًا على المعصية، تطلُبُ منهُ العفوَ والرّحمة، تدعو الغفّارَ كُلَّ يومٍ أن يغفِر.

احذر على نفسكَ من الهلاك، هذهِ المعاصي تُنهكك، لماذا تغترُّ بها؟

ألم يحن موعدُ إطفائها؟

إن لم تخشَ عذابَ الآخرة، فاخشَ عذابَ الدُّنيا على الأقل، إنّهُ سبحانه قادرٌ على أن يعذّبك وأنتَ مُتربّعٌ على أريكتكَ الفارهة في منزلك، قد يأتيكَ العذابُ منه على هيئةِ شعورٍ، يُدمّرُ القلوب، ويجعلها قبور، قد تأتيكَ وحشةٌ تأكلك، أو تخبُّطٌ ينهشك، فإذا ما كانت هذهِ شدّةُ عذابِ الدّنيا على قلوبنا، فأيُّ شدّةٍ تلك الّتي ستُصيبُنا من عذابِ الآخرة؟

وإذا ما كانَ هذا عذابُ الله لكَ وأنتَ جالسٌ في وساعةِ منزلك، فكيفَ سيكونُ عذابهُ وأنتَ في نارٍ عليها ملائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَاد؟

أنقذ نفسك، قبلَ أن يأتيَ يومٌ تقولُ فيهِ {يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}، سارِع، قبلَ أن ترى العذابَ فتقول {لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ}.

أنا والنّافذة

هذهِ سَنة أُخرى قَد مَضَت، وَأنا لا أزالُ على ذاتِ الرُّقعَة، نافِذةُ الغُرفة ضَجِرَت من شَكواي، وَباتَت تَمتَصُّ حُزنَها من أشجاني، أفكِّرُ فيما إذا رَجَمَتني عَنها في إحدى اللّيالي، تَقولُ لي بِقَسوة، تُوَبّخُني، فَلتَذهَب لَقَد أنهَكَني اتِّكاؤكَ على أخشابي مُنذُ أعوامٍ وَإلى الآن، مُذ هَجَرَتكَ تِلكَ الجَميلة، مُذ دَفنتَ الحُلمَ الثَّمين، مُذ لَوَّحتَ بِالوَداع لِأنقى الأصدِقاء، مُذ صِرتَ مُعدَمَ الأصابِع، أصابعكَ الّتي عضضتها ندمًا بُتِرَت اليوم، لقد أخذتَ حدَّكَ اليوم، لقد أتعبتَ كاهلي، زجاجي تعرَّى، نَفَضَ ثيابَهُ جانبًا، تجرّدَ من ذاته، من حزنك، من شكواك، من ضجرك وتذمّرك، إنّي اليوم مُتعبة لا طاقةَ لديَّ لأساندني، ثمّ إنّي يا صاحبَ الحظِّ التَّعيس نافذةُ هواء، لستُ أقل ولن أكونَ يومًا أكثر، لن ينفعكَ الاتّكاءُ عليَّ ولو اتّكأتَ عمرًا بأكمله، ونوافِذُ الفرج تجدها عند أعتابِ الرّحمن، هُنالك حيثُ لا نوافذ تُغلق ولا أبواب توصد لتهجرني وتَصِلَها كثيرًا، أترُكُكَ برعايةِ

الجبّارِ الرّحيم، أترُكُكَ برعايةِ الّذي قال {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}، بِقُربِهِ ستُجبر، سينخفضُ الضَّجيجُ داخلك، وستُنَعَّم، ثمّ سيختبركَ ليرى صبرك، فإذا فزتَ في الاختبار، وصبرتَ على الضَّراء، ستُبشّر، {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}، هكذا قالَ الرّحمن، وقولُهُ الحقّ، ووعدُهُ لا يُخلف، فإيّاك أن تبتعد عن أعتابه، كي لا يُصيبَكَ الخِزيُ في الدُّنيا والآخرة، تقرَّب منهُ بالطّاعات، لن تجدَ حلاوةً بعدَ حلاوةِ الطّاعة، وإذا ما كان التّقرُّبُ من الله في الأرضِ جنّة، فكيفَ سيكونُ القُربُ منهُ في الجنّة!

دقائق معدودة

أنتَ اليوم على فراشِ الموت، يعني ذلك أنّك أضحيتَ على أبوابِ استراحةٍ أبديّة، واقتربتَ من مداخلٍ ستوصلكَ إلى نومٍ طويل يكادُ يكونُ أبديًّا، الآن مرميٌّ بكَ على فراشٍ بملاءةٍ سريرٍ بيضاء، عيناكَ جاحظتانِ في سقفٍ بإنارةٍ منخفضة، كلّ ما حولكَ أجهزةٌ تجهلُ عملها، لكنّك تدرك بأنَّها وجدت لتنعشك، وجدت لتزيدَ من فترةِ بقائك على هذهِ الأرض، على صدركَ تجثو مسارٍ تكادُ تخنقَك من فرطِ الرّعب الّذي تُلقيهِ في نفسك، أنتَ على فراشِ الموت، هذا يدفعك للتّفكيرِ بأمرين لا ثالثَ لهما، إمّا أنّهُ قد صارَ بينكَ وبينَ الموت دقائقُ معدودة، أو أنّ دعاءك ودعاءَ الأقارب سيغيّرُ من ذلكَ القدر شيئًا فيكون للعمرِ متّسعٌ أكثر لديك.

تمرُّ بكَ لحظات تشعرُ بأنّ الموت قد نجحَ في محاوطتك، تشعرُ بأنّهُ سيطَرَ عليكَ بكامله، ولم يتبقَّ إلا لفظُ الشّهادتين، تخيّل ألمَ اللّحظة، ثمَّ بعدها تخيّل البهجة الّتي ستُصيبكَ إن نأى الموتُ عنكَ قليلًا وصرتَ

تشعرُ بالحياةِ مجدّدًا، صرتَ تشعرُ بأنّهُ مازالَ هناكَ أيّامٌ تستحقُّ أن تُعاش، هذا السّلام ما بعدَ النّكبة يُنعشُ القلب، يُعطي للرّوحِ بهجةً ما بعدها بهجة، أن تكونَ على حافّةِ الموت فتنتشلكَ يدُ الله إلى برّ الحياة، تسمعُ صوتَ الطّبيب وهو يقولُ لأقاربك بأنّ المريضَ بخير وأنّ وضعه أصبحَ يفسحُ لهُ مجالًا ضمنَ رقعةِ الحياة، ثمّ تسمعُ أصوات أقدامهم وهم يتراكضون ليلتفّوا حولك، تشعر بأنّ القلبَ اطمأن، والرّوح ارتاحت بشكلٍ عجيب، تقتربُ فترة خروجكَ من المشفى إلى منزلك، لتكملَ حياةً كنتَ قد بدأتها بأملٍ في عينيكَ وقلبك، ثمّ تمرُّ بنكسةٍ جديدة، لأنّهُ ما من مفرّ من الموت، أو لأنَّ أجلك قد حانَ موعده، فجأةً تضمحلُّ كلُّ الآمالِ الّتي بنيتها، تنهدمُ كلّ خُططكَ في بدءِ حياةٍ جديدة، بابتسامةٍ جديدةٍ ممشوقة، تُعارك الموت، تهزمُهُ، فيعودُ ليعاركَ مجدّدًا، كلّ تلكَ الصّراعات تهتكُ بك، تعذّبُكَ بلا رحمة، أنتَ الآن وحيدٌ ضمنَ فراشٍ في غرفةٍ مغلقة بأضواءٍ خافتة، سينتابكَ شعورٌ بالخوف، ستُلقي اللّوم على نفسك، ستتمنّى لو أنّهُ كان بإمكانكَ تغييرُ مفاهيمَ كثيرة في هذا

العالم، ولكنّ كلّ ذلك لن ينفع إذ أنّ صلاحيّةَ هذا العمرِ المهترِئ شارفت على الانتهاء.

تمرُّ بكَ نكسةٌ قويّة، تشعرُ بأنّها الأخيرة، بأنّها نكسةُ الموت، إنّهُ موعِدُ إعادةِ أمانةِ التُّراب، جاءَ وقتُ إطلاقِ سراحِ العصفور من صدرك، بأن تُفتح لهُ أبوابُ القفص على مصراعيها، تحتاجُ حينها إلى من يلتقطُ العصفورَ الهاربَ من صدرك، إلى من يعزّيك ويهدّئك، إلى من يخبركَ بأنّه مازالَ في العمر متّسعٌ لأيّامٍ جديدة، تسمعُ البكاءَ من حولك، تودُّ أن تستطيعَ أن تقولَ للباكين "لا تنوحوا فوقَ القبور، أسعدوا من لم يدخُلها بعد" ولكن لا طاقةَ لديكَ للتّنفس فكيفَ بكلمة، دقائقُ معدودة ويضمحلُّ كلّ شيء، هنيئًا لكَ، أنهيتَ مسيرةَ السّبعينَ عامًا من القلق.

دارُ شقاءٍ لا رخاء

قرأتُ مرّةً نصًّا بسيطًا وقفتُ مشدوهًا أمامهُ، نصًّا كتبني، نصًّا كتبنا جميعًا، يكادُ يكونُ دليلَ مستخدمٍ شامل، تقولُ فيهِ الكاتبة هيا ظاهر عودة:

"أدركتنا راحةُ البالِ مُذ أدركنا أنّ الدُّنيا دارُ شقاءٍ لا رخاء، وأنّ كلَّ ما يذهب يأتي غيره، فإن لم يأتِ أحضرناهُ عُنوةً.

لم نُرخِ الأيادي ولكنّنا أرَحنا القُلوب."

أعدتُ قراءة النّصّ عشر مرّات على الأقل، صار وردِيَ المفضّل، أصبحَ حبلَ النّجاة، صارَ خارطتي الأولى.

"دارُ شقاء لا رخاء" المعنى المقصود أنّ المرءَ يجبُ أن يكونَ مرتاحَ البال في أحزانه، في شقائه وتعبه، لأنّهُ خُلِقَ في دارِ عقاب، خُلِقَ في دارِ شقاء، خُلِقَ ليشقى، فلمَ يحزن!

كأن يكونَ المرءُ في زنزانة، يدخُلُ الزنزانة المجرم والقاتل والسّارق، كلّهم يدخلون كي يعذّبوا، لكنّهم مرتاحو البال، تراهم يُضرَبون بأكبالٍ ثِخان، تضيقُ أنفاسهم تحتَ المياه، تلسعُهُم الكهرباء، يذوقون كلّ أنواعِ التّعذيب، ولكنْ تراهم منطفئين راقدين كموقدٍ مهجور، كلّ ذلكَ لأنّهم عرفوا موقعهم، أيقنوا بأنّهم وجدوا هنا ليشقوا، وكذلك الأرض سجنٌ حصين، سجنٌ فيهِ الشّقاء، فيهِ شتّى أنواع العذاب، فعلى المرء أن يعلَمَ موقعه من الوجود، أنّهُ وجِدَ ليُحارب، وجِدَ ليُناضل، إذ أنّ الحياةَ نضال، ليسَ عليه إلّا أن يستغفر في لحظاتِ الضّجر، يلجَأ للدّعاء في لحظاتِ الحزنِ والقوّة، يصبر ويحمد الله كثيرًا، ويقرأ القرآن، الدّليل الأوّل والأخير في متاهَةِ هذهِ الأرض.

على المرء أن يستأصِلَ من ذاكرتِهِ فكرة أنّ هنالك حياةً سعيدة بكلِّ مجرياتها، عليهِ أن يكونَ متيقّنًا بأنّ الأرضَ دارُ شقاءٍ لا رخاء، أنتَ في ميدان، ناضل، قاوم، لا تُعطي بالًا للنّتيجة، يكفي أن تُسحَقَ روحكَ ضمنَ هذا الميدان.

طرفٌ ثالث

ما كانَ مِلحُ المَدامِعِ يَومًا لا يملأُ الوجنَتين، اليوم غَدَت المدامعُ جَافة، تَصحَّرت الوَجنَتين، فَتَشَقّقَت، يَبُسَ الغُصنُ وَاصفَرّت الأوراق، حالُ لَيلى وَحالي كَما حالُ الأوراقِ والغُصن، تَجَفّفَت على الغُصن الهَزيل، بَنَت أحلامَها على هَباءِ التَّصَحُّرِ وَالجَفاف، الغُصنُ كانَ صَلبًا وَفِيًّا لأوراقِهِ الجافّة، يَقطَعُ عَهدًا طَويلًا مع نَفسِهِ أنْ لا انحِناءَ وَلا لُيونة، يُرَدِّدُ كُلّ صَباح بِأنَّ رَبيعَ العُمرِ واصِلٌ بَعدَ المَشَقّة، بِأنَّ الأوراقَ سَتَينعُ بَعد الجفاف، كُلُّ العُهودِ تِلكَ جَديرَةٌ بِالثِّقة، وَحدَها نَسمَةُ الهَواء من قَطَعَت عَهدَ الغُصنِ بِالأوراق، ما كانَ الغُصنُ يومًا هزيلًا، كان صامدًا جبّارًا، لكنّ الرِّيحَ كانت قويَّةً باطِشة.

ولأنَّ لكلٍّ مِنّا أوراقٌ مُجَفّفة على الأغصان، فكلُّ ما نَرجوه ألّا تُطيحَ بِأغصانِنا نَسمَةُ هَواءٍ تُسقِطُ أمَلًا مُعَلَّقًا وَحُلمًا كادَ يتكَسَّرُ مِن جَفافه.

البُكاء لِنَوبات الحُزن الخَفيفة، وَحُزنُ اليَومِ فاجِع، ما عادَ مِلحُ المَدامِعِ يملَأ الوَجنَتَين عِندَ النَّكبات.

حُزنُ اليوم ضخم، ضخمٌ جدًّا، منذ سنواتٍ وأنا أعتني بذاكَ الحُلمِ المجفّف، منذُ سنواتٍ وأنا أنسجُ الأمل السّاذج، أين يذهب تعبُ السّنين؟

أينَ تذهبُ المشقّة؟

إلى أينَ ذهبت أطنانُ الأمل؟

عندما يخيبُ المرء، يحزنُ بشدّة على الحلم الّذي اختفى من بين يديه، ولكنَّ حزنهُ الأضخم يكونُ على سَعيِهِ الكبير وراءَ ذلكَ الحلم، حزنُهُ الأضخم يكونُ على الأملِ الّذي بذلَهُ في الرّحلة، الحزن، كلّ الحزن، على ذاكَ الأمل المُضحِك.

حِبالُ زينةٍ كثيرة، تُوحي بقدومِ العيد، وقلبي يرفُضُ أن يهدِمَ بيتَ عزائه، ومُجدّدًا حزنُ اليومِ فاجع، حزنُ اليومِ فاجع، ليتَ العيدَ يأتينا بِسعادةٍ ضخمة، فتقضي على هذا الحُزن الحارِق.

القرآن دستورُ حياةٍ مُتكامل

إذا ما قرأنا القرآن وتمعَّنا في معانيه وجدنا راحةً تملأ القلبَ طمأنينة، إذا ما جعلنا القرآن دليلنا هدأت أرواحنا، غَفَت عيوننا مرتاحة، وأنرنا قلوبنا المعتمة، وصحّحنا اتّجاهنا، وجعلنا من المتاهاتِ خرائط.

الأصدقاءُ اليوم ما عادوا كما كانوا، ما عادَ في قلوبهم رحمة، مُلِئت قلوبهم واكتظّت بالغيظ، إن بادلتهم الغيظ اغتاظوا أكثر، مُحتسبين أنفسهم انتصروا، هم فرحين بغيظك، فلا تكتل بهم.

وإن عفيتَ عنهم شعرتَ بأنّك عاجزٌ للحدِّ الّذي لا حدَّ بعده، شعرتَ بأنّهم قد وضعوكَ في حفرةٍ صغيرة، ورجموكَ بحجارتهم الكثيرة، وأنتَ الّذي تملكُ جبالًا من الحجارة، ساعدكَ اليومَ باتَ مُهترِئ، لا طاقةَ لهُ على حملِ حصوة.

ليسَ كذلك، ساعدكَ شريفٌ لا أكثر، يومًا ما صافحهم، أيرمي حصوةً في وجوههم بعدَ ذلك!

تَمُرُّ بآيةٍ صدفة تقول: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}

تستشعر رحمة الله في قضائِك، تشعر بأنّ القلبَ اطمأن، والرّوح ارتاحت، تُشفِقُ نفسُكَ على كلِّ من رمى حجرًا في وجهِ إنسان.

تأمرنا الآية أن نحبسَ الغيظَ والغضبَ داخلنا، فلا نُظهِرَ غلًّا وبغضًا للّذين أساءوا لنا في يومٍ ما، العالم بحاجة للنّقاء، فقدِ امتُلِأَ بالدّنس، العالم يحتاجُ كظمًا للغيظ وعفوًا عن النّاس.

تُكمل في سياقِ الآية القرآنيّة فترى "والعافينَ عنِ النّاس"، يأمرنا القرآن بأن نعفو، بأن لا نجعلَ عداوةً عندَ إنهاءِ ودّ، يأمرنا بأن نصفح عن المسيء، إنّ الودَّ الّذي ينتهي لا يتجدّد، ولكن عدم وجود الودّ لا يعني عدم وجود العفو!

اعفُ واصفح، فنهايةُ الآية تُخبِرُنا أنَّ اللهَ يُحِبُّ المحسنين، والفائِزُ حقًّا من كانَ مُحسِنًا وفازَ بمحبَّةِ الرّحمن.

ونهايةً، اسمع القرآنَ بكثرة، لكلِّ مُعضِلَةٍ آيةٌ تُحلُّها، ولكلِّ طريقٍ صعبٍ بيّنة، ولكلِّ متاهةٍ دليل، القرآن خارطة، سيدُلُّك، سيحميك، سيُغنيك.

لا تجعل الشّكوى مذلّة

إذا ما جاءكَ أحدهم يشكو إليكَ شوكةً في يده لا تذكّرهُ بأنّهُ من عبثَ بالشّوك، ذكّرهُ بأنّهُ كان لابدَّ للشّوكةِ أن تخرج في طريقه، أخبرهُ أنّ هذا الشّوكَ ابتلاءٌ كانَ لا بُدَّ أن يكون، ذكّرهُ بأنّ عليهِ أن يرضى، بأنّ عليهِ أن يصبر ويستغفر، ذكّرهُ بأنّ يدكَ مقطوعة، أشعرهُ بأنّ أحزانهُ بسيطة، أخبرهُ بأنّها دارُ شقاءٍ لا رخاء، يحتاجُ المرءُ من يربّتُ على كتفهِ مُطَمْئِنًا، لا من يُلقي عليهِ التُّهم بأنّهُ عبثَ بالشّوك، لا تجعل الشّكوى مذلّة، ولا تدع الدّموعَ تسيل، ما الّذي يفعلهُ الدّمعُ بنا إن كانت الشّكوى لوحدها مذلّة!

إنَّ قلبكَ ينقبضُ من هذهِ الشّوكة، فإذا ما تعلّقتَ بقشّةِ أملٍ صغيرة، ابتعد عن كلِّ نسمةِ هواءٍ تُفقِدُكَ هذا التّشبُّث، إذا ما لمعَ الأملُ في عينيك، ابتعد عن من يزيلُ الأملَ من المُقل، هذا العالم يحتاجُ كمًّا كبيرًا من

المواساة، كمًّا يعادلُ ضعفي خيبات الأمل الموجودة فيهِ، أولئكَ الّذينَ يقتلعونَ الأملَ من الأعيُن قاتلون حقيقةً لا مجازًا.

إذا لم تكُن في يومٍ بلسمًا، حذارِ أن تكونَ خنجرًا، حذارِ أن تقتصّ خيوطَ الأمل من قلوبِ الحائرين، حذارِ أن تغرِسَ خنجركَ المسموم في ظهورِ المُتعبين، إذا لم تستطع أن تُخيطَ الطّريقَ مُستقيمًا لأحدهم، لا ترسم لهُ في ذهنهِ بأنّ طريقَهُ دوّامة، لا تسحب منهُ خيوطَ الأمل، ذكّرهُ بأنّ الأملَ شكلٌ من أشكالِ الحياة، ذكّرهُ بأنّهُ بعدَ العُسر يُسرين، إذا لم تُرِد أن تنفع حذارِ أن تَضُرّ، وتذكَّر وردِّد قولَ الجبّار {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه}.

وتذكَّر أنَّ كلمةً رشيقة قد تكونُ كفيلةً لأن يرضى أحدهم عن دهرهِ، لأن يُسامحَ زمانَهُ من بعدِ العتب، إنَّ القلوبَ تموتُ بالحرف وتحيا بالحرف فما بالكَ بكلمة!

كن إسفنجة!

إذا ما رموكَ يومًا بشوكِ ألسنتهم فابتلعه، واقبض على قلبك كما القابض على جمرة، ولا تعاملهم بالمثل، ولا ترمهم بشوكة، إن رميتهم بشوكةٍ فرحوا أنّهم غاظوك، كن إسفنجة تمتصُّ الأذى، فتتبلّل، ثمّ سريعًا ما تجفّ، إنّ المعاملة بالمثل منهكة، مبدأ المعاملة بالمثل مبدأ ساذَج، مبدأ تصيُّد للشّخص المقابل، فإن أحسنوا إليه أحسن لهم، وإن أساؤوا إليه أساء لهم، هو مبدأ مراقبة للنّاس لا أكثر، واسعةُ الانتشار مقولة "من راقبَ النّاس ماتَ همًّا"، فاحذر أن تراقبَ تصرّفاتهم تجاهكَ، وأبعِد عن قلبكَ ثِقَلًا لستَ مضطرًّا على حمله، وأزح عنكَ جدالاتٍ عقيمة لا تنتهي إلّا بانتهاءِ الودّ، لأنّ خيرًا ستصنعهُ مع أحدهم هو خيرٌ لك، خيرٌ لنفسك، {مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ}، هذا خيرٌ سيعود عليكَ يومًا، لا تنتظر من الّذي صنعتَ الخيرَ معهُ أن يعيده إليك، سيعودُ عليكَ الخير من ربِّ الخير.

أن تصمتَ في وقتِ الجدال، أن تُنهي جدالًا بكلمة "أنتَ على حقّ"، أن تتغاضى الإساءة وتُحسِن لمن أساء، بذلك تكونُ قد رميتهم بالجمرِ دونَ أن يُحرقك، أن تتجاهلهم يعني أن تُغيظهم، لا تُنهك روحكَ في ردِّ الإساءة بالإساءة، {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}، هذا قولُ خالقٍ عظيم، أحسن لأنّكَ إن أحسنت فقد أحسنت لنفسك ولن تُجازى بذلكَ الإحسان إلا بإحسانٍ أضخم، ذلكَ هو كرمُ الخالقِ الكريم.

نحنُ أناسٌ نصمتُ عندَ الإساءة ولا نُكثرُ لومًا ولا كلام، حبرُنا غالٍ وكلامنا لا يُخطُّ على الجدران.

أمّا الدّربُ فلنا

نخشى أن يشاركنا الدّرب أناسٌ مُتسلّلون، أناسٌ ما كانوا في الحكاية، وما كانوا يومًا جزءًا من جُعبةِ الزّمن.

نُريد أن نمشي الطّريق مع من عبّدَهُ معنا، مع من حملنا حجارةَ الطّريق على ظهورنا معهم، لا نُريد أن يُقاسمنا الطّريق اللّصوص، نُريدُ من العابرين أن يبقوا عابرين، ألّا يضعوا بساطَ راحتهم في طُرقنا، نريدُ أن يمضوا إلى محطّاتهم، لا أن يجعلونا المحطّة، إنّنا نُشارِكُ فرحةَ النّصر مع الجميع، أمّا الدّربُ فلنا، نحنُ ومن عبَّدَهُ معنا.

نحنُ لا نحبُّ الطّريقَ لنضارته، بل نحبُّهُ لأنّنا نتشاركه مع من كانت رحلةُ العمرِ لأجلهم، فإذا ما مشينا يومًا على طريقٍ واحد، فلنقطع عهدًا على أن نخوضهُ بأكملهِ معًا، لا أن يكملَ كلٌّ منّا طريقهُ مع الغرباء، لا خلافَ يُفرّقُنا عن طريقٍ وضعنا بينَ حجارتهِ أسرارنا، زرعنا في

حدائقهِ أملنا، نَثرنا حبوبَ الإصرارِ سويّةً على أطرافه، وتشاركنا الخطوات دونما أن يُقدِمَ أحدٌ على الآخر.

أخشى أن يأتي يومٌ لا أجدُ فيهِ من يُشاركني الطّريق، أن يغزو اللّصوصُ طريقي، أخشى ما أخشاه أن تغدو الطّرقُ خاويةً وعرة، أن نقضي أعمارنا ننتَحِبُ على طرقاتٍ خَلَت من رفاقِ السّبيل، وكلُّ الّذي يُؤرِقُني أن أمشي وحيدًا جارًّا ورائي خيباتي، شاربًا ملحَ مدامعي، ناقمًا على طريقٍ لم يَسَع أقدامنا سويّةً.

وأيُّ قسوةٍ هذهِ أن يشربَ المرءُ ملحَ مدامعه!

أن يغدو الطّريقُ ترابًا موحلًا أمامك، بعد أن كان مُعبّدًا بأكمله.

دائمًا ما يعودُ مُتحدّبًا

إنّها غرابةُ ما بعدَ الاعتياد، غرابةٌ يعتريها حزن، غرابةٌ تجعلُ الرّوح في مأزق وتمزّقُ ما تبقّى من أمل، أن يشعر المرء بأنّهُ غريبٌ عن كلِّ الأماكن، أن ترفضهُ الأشياء والأشخاص، أن يشعر بضيقٍ في الأماكن المسقوفة، في الأماكنِ الضّيّقة، ثمّ يتّجهُ إلى مكانٍ بهِ المُتّسع، إلى مكانٍ يرى فيه زرقةَ السّماء، يمشي في الأزقة والشّوارع بأقدامِ الانطفاء، يسيرُ مُستقيمًا لا انحناءَ في قامته ولا خللَ في مشيته، يردّد وهو ينظرُ إلى السّماء "على الّذينَ تضرّرت قلوبهم اللّجوء للسّماء"، تذهله السّماءُ في كلّ مرّة، لكنّها تسبّب لهُ الغرابة كما تفعل كلّ الأشياءِ به، يمرُّ بهِ شعورٌ قديمٌ متهالك، تُذَكِّرُهُ الأماكنُ بالوجوه، هُنا هجرتهُ جميلته، وهنالك رمته بباقةِ الورودِ يومًا، على الطّرَفِ الآخر من الحيّ وقّعَ عقد انتهاء صداقتهِ مع صديقٍ عزيز، في ذروةِ الحيّ كانَ قد خسِرَ إحدى يديه على أثرِ حادثِ سيرٍ أليم مع عجوزٍ سبعينيّ، كلّ شبرٍ من منزله يذكّره بخيبة،

كان حينَ يعودُ مُتحدّبًا إلى المنزل، جارًّا خيبتهُ بأطرافِ أصابعه، يجلسُ ليعدَّ خيباتهِ على الأريكة، مُلِئَ منزلهُ بالخيبات، كلُّ الأماكنِ كان قد خسر بها، كلُّ الأماكن تذكِّرهُ بنكباته، فأينَ يفرّ؟!

قضى عمرهُ مُنتحبًا على طرقاتِ الخذلان، البارحة جابههُ خذلانٌ من موضعِ أمان، إنّهُ الخذلانُ الأشدّ على النّفسِ وطأة، خذلانٌ يعارك الرّوح وينهكُ الجسد.

خللهُ الأكبر قد كانَ في ذاكرته، ذاكرتهُ الّتي لا تحفظُ من الذّكرياتِ إلا أتعسها، كانت تؤلمهُ الذّكريات الجيّدُ منها قبلَ السّيّئ، كلّ ما نظرَ إلى الخلف ووجد أنّ ما مضى قد زاد، يتذكّر بأنّ طريقَ الحياةِ قد قصر، قصرَ فلم يبقَ في الطّريقِ المسلوك إلا قُماماتُ ذكريات، على المرءِ ألّا يصنعَ ذكرياتٍ مع الغرباء، عليهِ أن يصنعَ ذكرياتهِ مع نفسه ويكدّسها في سروالِ ذاكرته أينما حلّ.

على المرءِ أن يصنعَ ذكرياتٍ يحتملها أفقُ قلبهِ الضّيّق، لا أن يصنعَ ذكرياتهِ على حسبِ ما تسعهُ ذاكرتهُ من أشياء، مخازنُ الذّاكرة لا تنتهي، ولكنّ القلبَ ضنين.

نعمٌ ضخمة

قد تأتيكَ النّعمة على هيئةِ وجهٍ بشوش، قلبٍ صافي لا يعرفُ الحِقد ولا أيًّا من الضّغائن، قد يرزقُكَ الله روحًا مَرحَة وقَلبًا مِعطاء يُعطي دُونَ أن يُسأل، قد يفيضُ عليك كرمُ الله فيجعلكَ عزاءً لمن حولك، غارسًا للأمل لمن نزع الأملُ من مقلتيه، قد يَمُنُّ اللهُ عليكَ بأن يجعلكَ شفاءً لكلّ من يراك، فشفاءُ الخيبة تربيتةٌ على الكتف، ودواءُ الانطفاء ابتسامة، عُمومًا نحنُ اليوم نحزَنُ وبشدَّة على كُلِّ من امتلأ قلبُهُ بالسّوادِ والغيظ، أولئكَ أصحابُ نظرةِ الحقدِ والحَسد، بِرأيي أنَّ أشدَّ أنواعِ البلاء أن يُبتلى المرءُ بشيءٍ معنويٍّ لا يستطيعُ إصلاحهُ، كسوادٍ داكِنٍ في رُكنِ القلب لا يُمكن أن يَنجلي بأيِّ شاكلةٍ كانت، أو كنظرةِ حسدٍ لعينة جُبِلَ عليها أحدُ السَّوداويّين فليسَ لها مُطلقًا أن تتبدَّلَ إلى نظرةِ سلام، نحنُ نقولُ لكُم يا أصحابَ القُلوبِ السّوداء، يامَن تجلَّى الحسدُ على وجوهِكُم فباتَ واضِحًا

غيرَ خَفِيّ، أعانكُمُ الله على ما ابتُليتُم بِهِ من بلاءٍ أبَديّ، العزاء، كلُّ العزاءِ لكُم.

إذا ما كنتَ تملكُ قلبًا أبيضًا فلا تُدَنّسهُ بهم، دع بينكَ وبينهم مسافةً شاسعة، لا تُدنِّس طهركَ بهم، ولا تشوّه بياض قلبكَ بدجنة قلوبهم، لا تدعهم يسحبونك إلى ظلماتهم، أبعد نفسكَ عن هكذا عتمة، أنتَ مُضيء، وقلبكَ أشدُّ وضاءةً، وهذا الدّربُ الّذي أنتَ فيهِ نيّر، أنتَ مُشِعٌّ بكلِّ ما فيك، وأولئكَ الدّامسون، والمنغمسون في العتمة، ستأكلهم عتمتهم ذاتَ يوم، هم هالكون، حالكون، مظلمون، ومجدّدًا، العزاء، كلُّ العزاءِ لهم.

بيل غيتس

هذا العالم لا ينتظر أحدًا، هذه السّنين تركض، هذه الأحلام لن تحقّق نفسها بذاتها، هذه الأحلام تحتاج أن تركض نحوها، لا أن تهرب منها وتجعلها تركض نحوك، اليوم صار الزّمانُ أكثرَ سُرعة، وخوضُ هذه السّاحة يحتاجُ حشدًا من الشّجاعة والعزيمة، والثّروة لا تنتظر أحدًا، فهذا وليام هنري غيتس الثّالث المشهور باسم بيل غيتس، هو رجل أعمال ومبرمج أمريكي ومُحسِّن، أسّسَ عام 1975 شركة مايكروسوفت مع بول آلان، وقد صنع ثروته بنفسه، لم ينتظر أحدًا، ولم ينتظر أن تأتي الثّروة لعنده وهو باسطٌ قدميهِ على الأريكة.

يقول بيل غيتس:

"أنا لستُ عملاقاً، العمل هو العملاق."

فهو مثلك، ليس عملاقًا، ولكنّه حقّق نجاحه وثروته، عن طريق العمل العملاق، وعن طريق الإصرار والثّبات على هذا العمل، لم يسمح بيل غيتس لعمله العملاق أن يتغلّب عليه، بل واجهه بكلّ شجاعة، فكان المنتصر والفائز في طريقِ النّجاح.

كان بيل ثريًّا لحدٍّ كبير، لكنّه لم يكن يرى عيبًا مطلقًا في أن يعمل أحدهم في جليِ الأطباق والصّحون، حيثُ كان العمل في جليِ الأطباق فرصةً ذهبيّة كما ذكر بيل في إحدى مقولاته، حيث قال:

"لا تظن أنّ العمل في مطاعم الهمبرجر وغسيل الأطباق وظيفةٌ دون المستوى، فقد كان أجدادنا وآباؤنا، والنّاس إلى يومنا هذا، يتمنّون فرصة عمل كهذه."

الثّروة رائعة، ولكن وكما قال بيل غيتس:

"الثروة لا تكفي لجلب السّعادة، وقد تكون وبالًا على صاحبها."

وأنا أقول تعقيبًا على كلام بيل، الثّروة كقارب الإبحار، أمامك عالمٌ كبير، ستكونُ رحلتك رائعة لو أنّك كنت سائقًا ماهرًا، ولن يُفيدك شيئًا قاربك والعالم الواسع أمامك إن لم تُجِد القيادة، فالثّروة بحاجةٍ ماسّة وشديدة للمعرفة الجيّدة للقيادة.

بيل غيتس لم يتوقّف عن وضع البصمات، ولم يقتصر نجاحه على الثّروة واستثمار الأموال فقط، بل صار بيل مُلهم الكثير من الحالمين، حيثُ أصبح لمقالاته وأقواله تأثيرٌ وانتشار كبيرين على مواقع التّواصل الاجتماعي، ومن حِكمه نذكر لكم هذه المقولات القصيرة التي قالها بيل:

"قبل ولادتك لم يكن والداك شخصين مملّين، كما تظن الآن، لقد أصبحا كذلك بسبب مصاريف دراستك وارتفاع ثمن ملابسك الجميلة، والنّظر إليكَ وأنت تكبُر يومًا بعد يوم، لذلك، وقبل أن تشرع بتغيير العالم وإنقاذ الغابات الاستوائية من الدّمار، ابدأ أولًا بترتيب دولابك وتنظيفِ غرفتك."

كانت لغيتس نظرة سديدة، وكلمة حصيفة، وذلك بالطّبع كان نتاج معرفته وإمضاءه الكثير من الوقت في الاطّلاع والمباحثات والتثقّف، حيث قال بيل في الثقافة:

"أقضي الكثير من الوقت في القراءة."

وهذا على ما أعتقد السّبب الرئيسيّ لنجاحه، صدّقني ستندم على الوقت الطويل الذي ستمضيه مع الأصدقاء، أو ذاك الذي ستمضيه في صالة الألعاب الإلكترونيّة، ستندم على كل وقتٍ طويل أضعته في أيّ شيء، عدا شيئين فقط، لن تندم على إمضاء وقتٍ طويلٍ بهما، هما الطّاعة، والتّعلم.

وقال غيتس أيضًا في الثّقافة:

"لا أعتقد بأنّ الثّقافة هي شيء يمكن لك أن تصفه."

جعل الثّقافة مبهمة اللذّة، فحفّز بذلك الكثير من النّاس على الاطّلاع والمعرفة، ليعرفوا بأنفسهم الطعم واللذّة الحقيقيّة للثّقافة، فالثّقافة كالطّعام شيءٌ لا يمكن وصفه، ولكن يمكن تذوّقه.

يقول بيل

"كان عندي الكثير من الأحلام عندما كنت صغيرًا، وهذا على ما أعتقد نتج عن أنّه كانت لديّ الفرصة لأقرأ كثيرًا."

القراءة تعزّز الطُّموح الدّاخليّ لديك، وتزيد من تطلّعاتك نحو مستقبلٍ أفضل، وحدها القراءة ستجعل الأحلام تغزوك.

وقال غيتس:

"التّلفاز ليس هو الحياة الحقيقيّة، ففي الحياة الحقيقيّة: النّاس يتركون المقاهي ويقصدون العمل."

لا تُصدّق كلّ ما ترى، ولا تثق بكلّ ما تسمع، ليس من الضروريّ أن يكون كل ما يظهر أمامك على التّلفاز صحيح، التّلفاز كاذب، شغلوك

به، وأروك أنهم يتسكّعون في المقاهي، ليفسدوا تفكيرك، ويصنعوا طابعًا فكريًّا قذرًا عندك، أطفئ التلفاز، وهرول إلى العمل، ودعهم يعرضون كذبهم على هذه الشّاشات الضّخمة لوحدهم.

غيتس يحبّ الخير للنّاس، فقد أصبح في يونيو 2008 لا يعمل بشكل ووقت كامل مديرًا تنفيذيًّا لشركة مايكروسوفت، فعيّنَ مكانه ستيف بالمر رئيسًا للشركة، الّذي يعرفه منذ فترة الدّراسة في جامعة هارفارد، وقرر التّفرغ لمنظّمته الخيريّة "مؤسسة بيل وملينداغيتس" وهي أكبر جمعيّة خيريّة في العالم والمُمَوّلة جزئيًّا من ثروته، بيل يحبّ الإبداع بدلًا من البقاء في منطقة الرّاحة، وشجّع بيل نفسه وشعبه على اعتناق الإبداع، بيل يتطلّع إلى الأفضل، ويأخذ نهجًا علميًّا لتحديد الأهداف، هذا بيل غيتس، وهذا ما صنعه الإبداع والمعرفة بعالمه.

هدايا قرآنية

هنا آياتٌ مُحكمات من كتابِ العزيزِ الجبّار، فيها النّورُ لكلِّ من مَلأت الظُّلماتُ صُدورهم، هنا آياتٌ فيها شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين {وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}، هنا مواساتُكَ العُظمى، هنا سَتملؤكَ السّكينة، هنا آياتٌ جَمعتُها لك، ولقلبكَ المُرتَجِف، علّهُ يستكين.

سَمِّ الله وابدَأ رحلتَكَ الخلّابة في الطّمأنينة.

{قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ}

{قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا}

{عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا}

{إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}

{أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}

{رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ}

{إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

{وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ}

{إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}

{قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ}

{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}

{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}

{إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}

{أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}

{وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}

{لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ}

{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}

{يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ}

{فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}

{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ}

{قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ}

{فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا}

{وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}

{فَفِرُّوا إِلَى اللَّه}

{وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ}

{إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}

{وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}

{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم}

{وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}

{فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّه}

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}

{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}

{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}

{هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ}

{قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا}

{إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ}

{وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}

{وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ}

{وَمَن يَقنَطُ مِن رَحمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضّالّونَ}

{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا}

{وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ}

{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}

{وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}

{إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}

{إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ}

{وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا}

{وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}

{إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}

{فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}

{وَفَتْحٌ قَرِيبٌ}

{إِنَّا نُبَشِّرُكَ}

{وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ}

{إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}

{سَيَجعَلُ اللَّهُ بَعدَ عُسرٍ يُسرًا}

{فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ}

{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}

{وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}

{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا}

{إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسرَ}

{لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ}

{وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي}

{يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}

{لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ}

{إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ}

{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}

{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}

{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}

{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ}

{وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}

{لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا}

{فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}

{فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}

{وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}

{مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍۢ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ}

{إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ}

{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}

{اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ}

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}

{وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم}

{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا}

{قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا}

{وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ}

{بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

{وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا}

{لَهُمُ الْبُشْرَىٰ}

{إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ}

{فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ}

{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا}

{وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}

{فَاستَجَبنا لَهُ وَنَجَّيناهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذلِكَ نُنجِي المُؤمِنينَ}

{سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}

{وَاللَّهُ مَعَكُمْ}

{وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}

{إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}

{وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ}

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ}

{أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}

{أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ}

{فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا}

{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}

{ادخُلُوا الجَنَّةَ لا خَوفٌ عَلَيكُم وَلا أَنتُم تَحزَنونَ}

{لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ}

{إِنَّ رَبّي رَحيمٌ وَدودٌ}

{وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ}

{وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ}

{أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}.

الفهرس

الرقم	العنوان	الصفحة
1	الإهداء	5
2	تساؤلات	7
3	أعمارٌ مشلولة	11
4	بيانٌ وإذعان	14
5	أريدُ أن أنضج	16
6	عجزٌ أبدي	18
7	يُوسُف الصَّغير	20
8	شرخٌ سيرافقك طيلة العمر	22
9	في مُنتصفِ مقبرة	25
10	نعيبُ زماننا والعيبُ فينا	30
11	إنّما الحياةُ الرّحيل	35
12	الحياة مُهمّات	38
13	مِرسالٌ إلى وطن	41
14	اترُك أثرًا	45
15	مُناجاة	48
16	رسائل سماويّة	51
17	شِقَاق	56
18	أُصيبَ السّرطانُ بي	58

19	حنينٌ وماضٍ شجين	61
20	رسالةٌ منَ القُبور	64
21	الشّقاء سعادة	68
22	أرجحةُ طُرق وربٌّ رحيم	70
23	صُراخٌ داخلَ رأسي	72
24	وما كانَ مُنتصرًا	75
25	سعادة ضائِعة	78
26	حِقبَة السّلام	80
27	على فراشِ الموت	82
28	أحرُف من شعور	84
29	أوزّعُ ابتسامةً بقلبٍ مخلوع	87
30	لكنّهم رحلوا!	92
31	عندَ درجة الصّفر	94
32	كُنْ سماويًّا	96
33	الحياة بينَ رُكام الموت	99
34	أنتُم عُظماء	102
35	حرٌّ ومنسيّ	104
36	إجهاض	107
37	خانتهم الطُّرقات	109
38	رغبات	111
39	نصوصٌ معتوهة	114
40	المشقّةُ في قلبك	116

41	أنا والنّافذة	119
42	دقائق معدودة	121
43	دارُ شقاءٍ لا رخاء	124
44	طرفٌ ثالث	126
45	القرآن دستورُ حياةٍ مُتكامل	128
46	لا تجعل الشّكوى مذلّة	131
47	كن إسفنجة!	133
48	أمّا الدّربُ فلنا	135
49	دائمًا ما يعودُ مُتحدّبًا	137
50	نعمٌ ضخمة	140
51	بيل غيتس	142
52	هدايا قرآنية	148

من جعبة الزمن

في كلّ زاوية
من جُعبةِ الزّمن
خيبة ،عند كلّ
بقعةِ ظلام شمعةٌ
مُطفأة ،في كلّ
طريقٍ من الجُعبةِ
انكسار ،وفي كلّ
الانعطافاتِ كوارث ،
ثمّ على امتدادِ البصر
وما قبلَ خطِّ
النّهاية مطبّات ،
ضاعَ العمرُ أسفلَ
إحداها ،وحدها
جُعبةُ الزّمن تروي
قصّةَ أعمالهم ،
تحكي تجاعيدَ
وجوههم وقلوبهم.